برنامج دبي الدولي للكتابة
Dubai International Program for Writing

سامي الخليفي

ما بعد العاصفة

رواية

الطبعة الثانية

الفارابي

Qindeel | قنديل
للطباعة والنشر والتوزيع

ما بعد العاصفة

سامي الخليفي

ما بعد العاصفة

رواية

الكتاب: ما بعد العاصفة **After The Strom**

المؤلف: سامي الخليفي **Sami Al Khalifi**

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: قنديل للطباعة والنشر والتوزيع

ص: ب: 71474 شارع الشيخ زايد

دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

الموزّع: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تشرين الثاني 2015

الطبعة الثانية: آذار / مارس 2018

ISBN: 978-9948-18-893-3 - الإمارات العربية المتحدة

ISBN: 978-614-432-509-4 - لبنان

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر 2015

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك، إلّا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

موافقة «المجلس الوطني للإعلام» بدولة الإمارات العربية المتحدة رقم: (72078) تاريخ (2015/10/05)

أنجزت هذه الرواية بإشراف الروائية نجوى
بركات، في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة.

عن برنامج دبي الدولي للكتابة

أطلقت مؤسَّسةُ محمد بن راشد آل مكتوم في عام ٢٠١٣ «برنامج دبي الدولي للكتابة» بهدفِ دعمِ المؤلِّفين الإماراتيين والعرب والوصول بهم الى العالميَّة، وتمثِّل هذه المبادرةُ جزءاً من المبادرات التي تطلقها مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم تباعاً، ومن شأنِها الارتقاءُ بمستوى المجتمعِ العربيِّ فكريّاً وأدبيّاً.

وقد جاءت هذه الرواية ثمرة ورشة التدريب التي امتدت طيلة عامٍ كاملٍ، حيث استفاد روائيون إماراتيون من التدريب على أساليب الكتابة الروائيَّة الصحيحة، وبتقنية احترافيَّة تُمَكِّنُهم من وضعِ نتاجاتِهم موضِعَ التقديرِ بين مصافّ رواياتٍ متقدِّمةٍ.

ويتضمَّن «برنامج دبي الدولي للكتابة» ثلاث مراحل: الأولى تستهدفُ مِئَةً من الشباب الكُتَّاب والمؤلفين من

مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة، والثانية تستهدفُ مجموعةً من الكُتَّاب الشَّبابِ من الإخوة العرب المقيمين على أرض الإمارات، وأخيراً ستستهدفُ المرحلةُ الثالثةُ عمومَ المؤلِّفين الشباب من الإخوةِ العربِ في الوطنِ العربيِّ الكبيرِ.

ولن يقتصرَ دعمُ المؤسَّسةِ على نشرِ المؤلَّفاتِ للأعضاءِ في البرنامجِ، بل يتعدَّاه إلى تقديمِ العونِ اللازمِ للمؤلِّفين؛ ليتجاوزوا النطاقَ المحليَّ وصولاً بهم إلى العالميَّةِ.

جمال بن حويرب
العضو المنتدب
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

الإهداء

إلى ابنتي شوق...

★

خمسة وسبعون... ستة وسبعون... سبعة وسبعون... ينتفض الساعدان. ثمانية وسبعون... صوت زفير. يقترب الصدر من أرضية حصباء مدببة، ينقطع النفس ويهتز الجسم، ثم يندفع للأعلى بصعوبة. تسع وسبعووووون...

انهار علي علوان بجسده الضخم على الأرض، فشعر بألم الوخز، انقلب واستلقى على ظهره بسرعة ورشاقة. نظر إلى السقف، لمح طيف والده ووالدته، أخذ شهيقاً، فامتلأت رئتاه وانتظمت دقات قلبه. فرد ذراعيه لأقصى مداهما، ثم وضعهما أسفل منتصف الحوض. مد ساقيه بشكل مستقيم ورفعهما بحركة رشيقة، وهو يضغط بأسفل ظهره على الأرض. واحد، اثنان، الساقان مشرعتان في الهواء، ثلاثة... تسعة وأربعون. تتشنج القدمان، خمسووووون، يتصبب العرق من جسده بغزارة. ترك قدميه تهويان إلى الأرض وهو يزفر بقوة، فتسارع نبضه. سمع وقع اقدام أحد الحراس تقترب، فانتصب وجال في الغرفة عارياً، إلا من سروال رياضي قصير. بسط ذراعيه وساقيه، وحرك عنقه ورأسه بخفة. التقط فوطة صغيرة ومسح عن جسده عرقاً لزجاً تصبب من كل

مساماته. لبس فانيلته البيضاء، ثم جلس على حافة الدكة الإسمنتية. أخذ نفسه بالتباطؤ شيئاً فشيئاً .

تطلع علي علوان بعينين جبارتين إلى كفيه المتشققتين وشرايين رسغه الظاهرة، تحسس بأنامله قدماً ضخمة نافرة العروق. سطح القدم مشعر وعظم الكاحل بارز، ساق طويلة تزينها تبانة مع أثر لجرح قديم. لمس من تحت الفانيلة البطن بارز التقاطيع، سكس باك ظاهر، خاصرة دقيقة، وزندان تزينهما عضلات قوية مشدودة، مع ظهر عريض .

توقف سجان أمام محبسه متلصصاً، لكي يتأكد من وجود السجين. راقبه وهو ينهض ويستأنف ممارسة تمارينه داخل مكعّبه الصغير، وهو يتمدد بجسمه الأسمر الرشيق على ظهره، ثانياً ساقيه، وهو يضع يديه خلف أذنيه ثم يرفع جذعه بأقصى قدر، وهو يعدّ واحد، ثم ينزل ويعاود النهوض، اثنان، ثلاثة... ويصل إلى حد مرونته القصوى... ثلاااااثون! إلى أن استلقى يستريح بعد أن مسح وجهه بفوطته الصغيرة.

أحمق، قال الحارس هازئاً وهو يغادر المكان.

نهض علي علوان وتمدّد بجسده المنهك على الدكّة، واضعاً ساقاً على أختها. ما يزال صدره لاهثاً، ألم خفيف في مفاصله، وسلسلة عظامه تكاد تتفتت. ترامى إلى سمعه صوت يجأر بأذان العشاء، عبر مكبرات الصوت. لا يُسمع هنا من الأصوات بعد الأذان، سوى صخب قطط تتعارك، أو نباح كلاب ضالة، أو دندنة جندي الحراسة وهو يصارع السأم. ها هو يسمعه الآن يردد بصوته الخشن أغنية لفيروز. كيف يحق لهذا المخلوق أن يغني لفيروز، من غير وضوء!

بعدت أصوات القطط والكلاب، وظل جندي الحراسة يدندن. نظر علي علوان من حوله وهو يكوّر الفوطة الصغيرة بين يديه، بعد أن هش بها الذباب عن جسمه. زنزانة ضيقة طُليت بلون زيتي كئيب، نافذة يتيمة ذات قضبان فولاذية تؤكد على أن التفكير – مجرد التفكير– بالهرب، يعتبر رابع الغول والعنقاء والخل الوفي. لمبة تتدلى من وسط السقف تسكب كآبة أكثر مما تسكب نوراً، وفي الزوايا والشقوق عشّشت عناكب وسحالٍ تعبر الجدران بوجل، بينما تتطاير في الجو كمية لا بأس بها من الذباب والبعوض. الباب حديدي أسود تزينه قضبان صدئة، يصدر صريراً مزعجاً يوقظ حتى الموتى. أما الأرضية، فبلاطة سليمة تليها أخرى معطوبة، مشبعة بالرطوبة والعفونة، كما هي الجدران المليئة بأشعار وذكريات خُطت بخطوط صبيانية باهته، لرفاق عصاة مارقين:

الأمور طيبة جداً/ أبو نورة مر من هنا/ أنا المغفل الذي لا يحميه القانون/ الشياطين لا تسكن الشياطين/ أخروا عمل اليوم إلى الغد .

أخذ علي علوان يتلهى بقراءة جمل وعبارات تحتمل تفسيرات وتأويلات متفاوتة، ثم ابتسم ساخراً. اعتدل جالساً، ومال بجذعه ملتفتاً خلفه، حيث رسوم باهته وخربشات لا تعني شيئاً. ارتد بجسمه، سانداً رأسه إلى الجدار، واستعاد العبارة السابقة التي أعجبته حيث يؤكد كاتبها أن – الأمور طيبة جداً–. بدأت رائحة العدس ترفرف في الأجواء، فتساءل عن الحكمة من أكل العدس في الحجز، وهو سؤال لن يستطيع أحد الإجابة عنه، حتى فرويد بجلال قدره. لقد سئم من تناول العدس بشكل شبه يومي. كم يتمنى ساندويش زعتر مثلاً... الآن!

تعالت أصوات، وبعد حين، ظهر السجان اياه، حاملاً صينية الطعام. فتح الباب الذي أصدر كعادته صريره المزعج، ثم اندفع ووضع الصينية الألومنيوم على الأرض، بجانب قدمي علي علوان، أدار ظهره بطريقة ميكانيكية، وقفل عائداً من حيث جاء، بعد أن صفق الباب وراءه.

مدّ علي علوان يده السمراء المعروقة، وسحب قنينة الماء، ونحى الصينية جانباً. حلقه جاف. عبّ من القنينة حتى ارتوى، ودلق ما تبقى على رأسه، ثم أسند ظهره إلى الجدار. سرح بعيداً عن المكان والزمان، شريط حياته يمرّ أمام عينيه ببطء، والذكريات تتدافع في مخيلته. تذكر صديقه حامد. وضع يده على جبهته، وهو يستعيد ذاك المشهد. اقشعر جسده، وطفرت دموع الحزن من عينيه.

من الأصوات المحيطة به، أدرك أنها أصبحت التاسعة مساءً. ففي الباحة الرئيسية للسجن، تجري الآن عملية التفقد وتبديل مناوبة الحراس. الخطوات منتظمة، مليئة بالحماس، يستلم آمر المناوبة من رقيب الحرس، التمام اليومي. يأخذ رقيب الحرس التعليمات، يتم التأكد من عدد المحتجزين، وعدد أفراد الحراسة. يحين الموعد الإجباري للنوم، فتطفأ الأنوار الداخلية في جميع العنابر، حتى تطبق العتمة الثقيلة على المكان وأهله.

طوى علي علوان اللحاف الصوفي الخشن الأسود، ووضعه عند مرقد رأسه كمخدة. لكنه، وبعد محاولات عدة، لم يستطع استجلاب

النوم أو الراحة، حتى وإن كانت راحة زائفة. تناهى إلى سمعه صدى مشاجرات وصرخات مدوية، وغناء وضحكات انطلقت من عالم الأشباح هذا، فأخذ يتمطى ويتثاءب. مسح لزوجة العرق من على وجهه، وشعر بخليط من الغضب والحزن والاحباط، فقام ينظر إلى الخارج من خلال قضبان الباب. في الفناء، حام الحارس جيئة وذهاباً، قبل أن يشعل لفافة تبغ. وبعد دقائق، ألقى عقب السيجارة وأطفأه في التراب، بحذائه العسكري الغليظ ذي الرقبة العالية. شعر علي علوان برغبه هائلة بتدخين سيجارة مارلبورو أحمر. خرمان، عاد يضطجع، محاولاً اصطياد النوم. إلا أن غزو أسراب الناموس اللعين كان قد بدأ .

بدا مشلول التفكير، مع شعور كاسح بالانسحاق. اليوم الثاني له في الحجز، أو تحديداً هو اليوم الثاني له في الغياب. كان يشعر بالملل والقنوط، كيف لا وهو منقطع عن العالم، مع تجاهل تام لوجوده. لم يتبرع أيّ من الزملاء بزيارته، ناهيك عمّن يجود عليه بشرح لوضعه القانوني، مع محدودية تجربة سجن سابقة.

تربع وأسند ظهره إلى الجدار، أخذ صدره يعلو ويهبط بانتظام. مازال يحس بطاقة مخزونة ولذة عارمة في ممارسة التمارين الرياضية. مازالت التمارين تستهويه وتجذبه بشده مثل اليويو. أطرق برأسه إلى الأرض صامتاً واجماً، ثم قام ونزع قميصه وظل بالشورت القصير. افترش الأرض، وبقوة هرقلية، راح يكمل وصلته الرياضية، ويكابد عزلته بالتمارين، حتى أخذ منه الجهد، فسقط رأسه فوق صدره، وبدأت أنفاسه المنتظمة ترتفع، فنام في وضعية الجلوس.

★

في الثامنة صباحاً، زعق حارس المكان بصوته المزعج، هيا انهض!

انصاع علي علوان للأمر، فجلس على حافة الدكة، متصلّب الأطراف جراء نوم مزعج. ارتطمت قدمه بصينية الألومنيوم التي ظلت بجواره طوال الليل، فاستفاقت مثله حشرات وصراصير تجمعت حول الخبز والعدس. نهض متثاقلاً، وهو يفرك عينيه بكسل. ليس لديه أية غيارات أو ملابس داخلية نظيفة. لبس بدلة السجن الزرقاء، وانتعل زنوبة تبرعوا بها له، بعد أن جردوه من كل شيء. سار باتجاه الباب، بينما الحارس يعبث بحلقة المفاتيح، محاولاً اصطياد الصحيح منها.

فُتح الباب كعادته بصرير مزعج، أمسك الحارس بذراعه وأخرجه إلى الفناء. قاده إلى مبنى صغير مستقل عُلقت على واجهته لافتة صغيرة حمراء كتب عليها – حمّام الجنود –.

لم يكُ للمكان من صفات الحمام سوى الاسم. مياه قذرة سوداء، روائح عطنه تصدّ النفس، وطلاء جدران يبعث على التقيؤ. تنقسم هندسة المبنى إلى صفين متقابلين من حجرات، في داخل كل منها

حفره لقضاء الحاجة، تسترها أبواب خشبية اهترأ أسفلها وخط عليها بائسون رسومات سريالية تنافس في تأويلاتها ما خطه الرفيق بيكاسو. في وسط المبنى، هناك مغسلتان بصنابير عتيقة، تعلوهما مرآتان عريضتان بهما من الصدأ ما الله به عليم.

أفرغ علي علوان مثانته، ساداً منخريه بأصابعه. حاول أن يشد الحبل المتصل بخزان الماء. فاكتشف أنه عطلان. خرج مسرعاً، انحنى فوق إحدى المغسلتين ليغسل وجهه، رشف بعض الماء إطفاء للعطش، فشعر ببعض الانتعاش. نظر إلى وجهه في المرآة، لقد ازداد شحوبه ونبتت لحيته. لا يهمّ، لا يهمّ، قالها لنفسه على استحياء.

في السجن، يشعر السجّان بالخوف أكثر من السجين، فكّر علي علوان في نفسه حين رأى الحارس يراقبه بوجل واشمئزاز...

يا له من بليد، قال متسائلاً، هل سمع الحارس جملته، أم أن صداها تردد في صدره؟

عاد به الحارس مرة أخرى إلى الأسر، أوصد الباب بعنايه تدلّ على أهمية المسجون. قال الحارس وهو يهم بالمغادرة: سأحضر لك ملابسك، ثم اختفى لدقائق في غرفة الأمانات، من حيث عاد حاملاً حذاء برقبة وملابس عسكرية هي تلك التي سلّمها علي علوان قبل دخوله الزنزانة.

ألقى بها الحارس عبر قضبان الباب بقرف، وهو يصيح بجفاء وبصوت أجش : لديك خمس دقائق فقط ... هيا، تحرّك!

هز علي علوان رأسه موافقاً، اذ ليس أمامه إلا الإذعان. انشغل للحظات بالنظر إلى زيه العسكري. منذ نعومة أظفاره وهو يلبسه. كم أحب ارتداءه والزهو به، كان مقتنعاً بأن للقدر أحكاماً لا نرسمها بمخيلتنا، بل نفاجأ بها كما الصبح، واضحة بلا غبش. خلع بدلة السجن الزرقاء، وضع نفسه داخل بدلته العسكرية، لبس حذاءه ذا الرقبة الطويلة، طرح القبعة على رأسه الحليق، شدّها لكي لا تظهر عيوب حلاقة لم يحسنوا بها وفادته، فبروتوكول الإقامة في السجن، هو حراثة الرأس على الزيرو. أما لماذا يفعلون ذلك ،، فهو سؤال قد تستغرق الإجابة عنه عمراً بحاله.

بعد مضي خمس دقائق أنهى خلالها استعداده، اقتاده الحارس جاف الطباع إلى الخارج. تقدم علي علوان بخطوات متثاقله تحمل كتلة من المشاعر المتناقضة. كان يحس بسكين تمزق كبرياءه، وبأن إهانة الحبس قد شرخته شرخاً غائراً، لا شفاء له منه. ومع هذا، ولأن الثبات على المبدأ يأتي دوماً بنتائج طيبة، فقد حاول لملمة نفسه وقرر خوض معركته على كل المستويات. لا يفل الحديد إلا الحديد، نعم، لا يفل الحديد إلا الإرادة الحديدية التي لا يضاهيها في الوجود شيء. هكذا كان يحاول مداهنة نفسه واقناعها بأنه يسيطر على الوضع، وأن الأقدار ولا بد ستلعب لصالحه.

سار مرفوع الجبين، مسكوناً بقلق وأسئلة جالت بخاطره. بأي وجه سيقابل لجنة التحقيق العسكرية، وبأي منطق سيحاجهم؟ هل

ستشفع له مشاركته في حرب الخليج ؟ وهل سيساعده حصوله على حزام بطولة الملاكمة ؟ توجس خوفاً مما سيجري، إلا أنه أخفى توجّسه وتقدم باتجاه عربة عسكرية ذات قفص سلكي معدني، ولون أزرق داكن مميز. وقف خلفها، ففُتح له باب القفص، إلا أنه رفض الركوب، مبرراً احتجاجه بكون النظام العسكريّ وطبيعة رتبته، لا يسمحان له بالركوب كأنه أسير نازيّ، أو قرد تم اصطياده بعد رحلة صيد مضنية. حاج حتى أُسقط في يد الحارس الذي عاد إلى مكتب الضابط المناوب، واشتبك معه في النقاش. لكن، جاء الأمر في النهاية بضرورة إرغام السجين على الركوب.

عاد الحارس ودفع علي علوان بغلظة فوق سلم صغير ذي ثلاث عوارض، يستعان به على الصعود. وفي ثوان، أصبح علي علوان نجماً من نجوم القفص. كان متماسكاً، فلم يكترث كثيراً، أو ربما لم يرد أن يزيد من حسرته. احتل الحارس مقعده بجانب السائق الذي ارتقى عرشه مغتبطاً بهذه اللحظة التاريخية، ومضى الموكب يتهادى في زحف بطيء، بين طرقات المعسكر. كان علي علوان في جوف عربة تهزه هزاً عنيفاً، أخذ ينقل بصره ما بين ساحة الميدان المفروشة بالإسفلت، مكاتب الإدارة ومكتب القائد، نادي وسكن الضباط، والكانتين والمسجد. بعد أن عبروا من أمام ثكنات الأفراد وناديهم، ومروا بجانب مخزن الأسلحة، ساروا بمحاذاة سور حصين يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار يعلوه شبك، وفي زواياه كشافات ضخمة وحراس

مرابطون، جنود بؤساء مسالمون، ينظرون بعيون ملأى بالفضول إلى الموكب المهيب، فيبتسم بعضهم شامتاً، فيما ينظر آخرون بعين العطف. سرحت عينا علي علوان باتجاه قفص حديدي وضع أمام البوابة الرئيسية، هو بمثابة سجن تأديبي للجنود، لعدة ساعات أو أيام. وما هي إلا دقائق، حتى توقفت العربة أمام عمود غليظ يسد الطريق، ثم خرج جندي حراسة من كرفان، يحمل على كتفه بندقية إم ١٦ متحفزة ومدهونة بالزيت، وتقدم نحوهم. ناوله الحارس قصاصة ورقية، فأزاح العمود، ساحباً إياه للأعلى بواسطة حبل. غادرت العربة بوابة المعسكر الكئيب كآبة الأرامل، وسارت باتجاه الشارع العام، ثم راحت تخترق شوارع يعرفها علي علوان جيداً، شوارع أصبحت واسعة، مرصوفة، تحف بها أشجار وارفة الأغصان وتجمعات لفلل راقية هزيلة، مع بساتين ونخيل وحدائق عامة. لقد تغيرت البلاد بسرعة، زلزلت الأرض بزلزال التحديث، فتبدلت المعالم وتضخّمت الأماكن. مر قطار التنمية ينهب الأرض، محوّلاً إياها من أرض يباب، إلى عمران بلا ملامح أو هوية، ينمو ويتسع ويأكل من الصحراء. أزالت معاولُ التحديث البيوت القديمة، ففقدت الحارة مجدها القديم. أعرض الناس عن حاراتهم بتأفف، ثم باحتقار، كأنهم يهربون من المكان كله ولا يرغبون في العودة إليه.

شعر علي علوان بغصة ابتلعها على مضض، حين انسابت نسمات ذكرى من بواكير عالم طفولته ومراهقته. كانت العربة قد سارت نحو

ساعة اجتازت خلالها متاريس ومطبات، ثم توقفت أمام حاجز بوابة عسكرية يقبع خلفها مبنى كبير لم يتبين هويته. اجتازوا البوابة الرئيسية وتوقفوا أمام المبنى، فأشار إليه الحارس أن ينزل. ترجّل وسار الحارس أمامه بصرامة وحزم، ممسكاً بملف أصفر اللون. بصق علي علوان على الأرض ومسح فمه بكفه، ومشى وهو يزمّ شفتيه، متظاهراً بالقوة ورباطة جأش.

★

كان المبنى ضخماً بثلاثة طوابق، تحيط واجهته الزهور والنجيل، على جوانبه سيارات مظللة لكبار الضباط، ويتصدره جنديان يقومان بحراسة الباب الزجاجي الرئيسي. صعد الحارس وعلي علوان درجات رخامية كثيرة، ثم ولجا الصرح الحديث. حيث اجتازا ردهة استقبال هائلة الاتساع، أرضيتها من رخام أبيض، وتتدلى من قبة سقفها ثريا ضخمة من الكريستال تنتج إنارة شديدة الوهج، تعكسها الجدران المزركشة بماء الذهب، مرآه ضخمة ذهبية الإطار، ونافورة مياه راقصة تتوسط الردهة.

في ركن القاعة الأيسر، مكتب للاستقبال فيه جندي منهمك بالكتابة. الصمت تام يوحي بالرهبة، وروائح بخور وعطور نسائية تفوح في الارجاء. انطلقا في رواق طويل على جانبيه غرف موصدة الأبواب. كانت أصوات وقع الأقدام تطربه وهي تطن متهادية على الرخام الأملس. نظر نظرة السائح إلى واقعه الجديد، ولما التفت إلى أحد المكاتب المفتوحة، أسعفته الذاكرة في تبيّن وجه أحد الضباط الذين عمل معهم من قبل، لكن الضابط تجاهل نظراته واستدار عنه.

أحس علي علوان بذل من نوع مختلف، لا علاقة له بالتشفّي، بل بالازدراء يلاحقه من قبل أي شخص يقابله، حتى من عمال البوفيه! اجتازا الممر الطويل، انعطفا إلى اليمين، وتجاوزا المصاعد، ثم توقفا فجأة أمام أحد المكاتب التي تقع مباشرة عند منعطف سلم ملكي فخم، يفضي إلى الدور الثاني.

طرق الحارس الباب بأدب، أدار المقبض بلطف ودخل الحجرة حيث ضرب بحذائه الأرض بجسارة، مؤدياً التحية على أصولها، قبل أن يقف في انتباه. كان الباب مواراً ومتاحاً للتلصّص، ترك همهمة وحواراً مبهماً يتسربان منه. خرج الحارس تاركاً الباب مفتوحاً على مصراعيه، وبلهجة آمره وبمراسم عسكرية معتادة في مثل تلك المواقف، طلب من علي علوان التقدم.

لقد اقترب أخيراً من المصير المبرمج له، تقدّم بخطوات تصطنع الثقة إلى ... المصيدة. دلف إلى حجرة فسيحة مدهونة بلون مبهج، لكنها باردة برود الجالسين فيها. في الوسط، طاولة بيضوية من خشب لامع، ضخمة الحجم، بُنية اللون، عليها صحن حلويات وأطباق أخرى مليئة بالفستق واللوز، وفي الخلف مكتبة صُفت في رفوفها كتب ومجلدات ضخمة، تدل على ثقافة صاحب المكان. فوق المكتبة مباشرة، صور لشخصيات مرموقة، ثم ساعة حائط على شكل مرساة سفينة. إلى اليمين مدفأة تتزاحم فوق رفها الرخامي الصور، تعلوها لوحتان زيتيتان من أصول عالمية مشهورة، منسوختان بإتقان. وإلى اليسار، نافذة كبيرة

مغطاة بستائر حمراء فاقعة اللون متناسقة مع السجادة العجمية من النوع الأصفهاني التي تزين الأرضية.

جال علي علوان بنظره على الحاضرين، كانوا جميعاً في حالة انسجام، يرتشفون الشاي في صمت. رفع رأسه وأمعن النظر في لوحة معدنية صغيرة مذهبة تعلو الطاولة، كتب عليها العقيد عبدالعزيز الشريف. لم يكن يتوقع أن يكون هذا الطاقم كله في استقباله ! عقيد، ونقيب شاب، وشخص ثالث مجهول لم يتبين من هو، يجلس بزيه المدني متصنعاً الاحترام، ثوب أبيض وشماغ أحمر ونظارة رايبان كلاسيكية مذهبة الإطار موضوعة أمامه على الطاولة. اكتشف علي لاحقاً أنه كاتب ومدوّن الجلسة. ولسبب غير مفهوم، كان غريمه الرائد صلاح متواجداً في الغرفة أيضاً !

كان العقيد أسمر البشرة، كث اللحية والشاربين، سميناً بكرش بارز يجعله يبدو كامرأة حامل في شهرها السابع، متهدل عضلات الوجه، تتدلى على صدره كمية لا بأس بها من الأوسمة والنياشين، ويضع نظارة للقراءة وقناعاً من الصرامة والقسوة. كان يتشاغل بتقليب أوراق الملف الأصفر، يرفع رأسه لينظر أمامه، ثم يعود لنبش الملف. عندما حانت فرصة النقاش، تنحنح قائلاً بحزم : اجلس. فجذب علي علوان أحد الكراسي أمامه وارتمى فوقه، مقابلاً للعقيد.

وقف الحارس خلفه متحفزاً، وعدّل النقيب من وضعية جلوسه، كمن يستعد ويتأهب. إنه ضابط حقوقي في مجال القضاء، رياضي الهيئة، وسيم الملامح، في العشرينيات من عمره، أما غريمه الرائد

صلاح، فراح ينظر إليه باشمئزاز. في شفته العليا جرح غائر، وإحدى أسنانه الأمامية ناقصة جراء اللكمة التي تلقاها. إنه في الأربعينيات من عمره، هيكل عظمي، حليق الشارب واللحية، مدبب الأنف، يضع نظارة داكنة تخفي خلفها عينين ذئبيتين. ارتفع من القاع بطريقة مفاجئة، خدمته الواسطة وفتح له الحظ ذراعيه إلى أقصى حد متخيل. عرف تماماً متى يجذب الخيط ومتى يرخيه. له قدرة فائقة على ترويع الآمنين، هو الذي تمرس بتعذيب نفسيات صغار الرتب، بحيث كان ذكر اسمه فقط يشكل كابوساً حقيقياً للجنود، وينشر الكآبة في أي مكان يتواجد فيه.

قال العقيد بصوت مبحوح، بعد أن اتسعت عيناه ثم ضاقتا : أنت الرقيب علي علوان، صحيح ! فهز علي علوان رأسه أن نعم .أكمل العقيد: قمت في يوم الثاني من أغسطس، وأمام مجموعة من أفراد القطاع الذي تنتمي إليه، بالاعتداء الصريح على الرائد صلاح، مسبباً له أذى جسدياً. توقف لثوان، ثم تابع يقول: ما هو ردك؟

باحترام ودبلوماسية، أجاب علي علوان الذي كان، وبكل كيانه، منهمكاً في ترتيب وتسطير الكلمات على لسانه: نعم، لقد حدث، ولكنه كان السبب، سيدي . أسند العقيد ظهره إلى كرسيه، وأزاح النظارة الطبية ووضعها على الطاولة، ثم شبك أصابعه قائلاً: جاوب يا عسكري على قد السؤال، ما هو ردك على ما ذكرته! بعد تفكير، أجاب علي: نعم حدث يا سيدي، لقد كان الرائد فجاً معي في الحوار. ساعتها، لم أكن في حالة تسمح لي بالرد شفهياً، فلكمته تصحيحاً للوضع . أراد

العقيد شلّ حركة الرقيب علي علوان، فباغته بالقول : هل تعرف عقوبة فعلتك !؟

بدت النتيجة محسومة. العقيد متعاطف ومنحاز إلى جانب زميل المهنة، وهاهو يحاول توصيل رسالة مفادها " كش ملك ". انكمش علي علوان على نفسه، كان الخطب جللاً كما يقول النحاة، فيما أخذ غريمه الرائد صلاح يراقب الموقف بهدوء، ناظراً إليه بازدراء.

نظر العقيد إلى علي علوان متفحّصاً، وهو يزرع الوقار على قسمات وجهه المتهدل: لم تجبني هه، هل تعرف عقوبة فعلتك؟ نظر إليه علي في حيرة، فما سمعه تواً بث في أوصاله خوفاً مبهماً منعه من التمييز بين بنود القانون وبين تجلياته. جاء رده الأول بطبيعة الحال تلقائياً، نكس رأسه وأخذ ينظر بصمت إلى سطح الطاولة اللامع الذي يعكس وجوه الجالسين. رفع بعدها عينيه إليهم بصمت وغضب وتحدٍ، بعد أن تجمع الغيظ في أعماقه وكاد ينفجر، إلا أنه ظل صامتاً حائراً، لا يعرف بم يرد .

تقاربت رؤوس أعضاء الهيئة للتشاور، بعد اتفاق صامت، تحدث النقيب : كما أنك أيها الرقيب مدان أيضاً بكسر الأوامر العسكرية . نفض علي علوان حينها جمود استفساراته وأجاب متسائلاً : أية أوامر يا سيدي ! انهمر السرور من عيني العقيد، فأجابه بكلمات يابسة : أوامر الضبط والربط العسكري. أريد منك إجابات مختصرة ولا داعي للإسهاب في الرد يا عسكري .لم يكن أمام علي علوان سوى التعامل بمبدأ الأدب مقابل الأدب، وقلة الأدب مقابل قلة الأدب، فأجاب : أنا لم أكسر أية أوامر صدرت إليّ يا سيدي.

تولى النقيب الرد وهو يهز رأسه : بل كسرتها ! لقد قمت بتحدي أمر مسؤول القطاع الذي تنتمي إليه، أي أمر قائدك المباشر.

قرأ علي علوان الفاتحة في سره، لكي يلهمه الله رداً مناسباً. بلع ريقه وأجاب : لقد قدرت الموقف، كانت الحرارة مرتفعة، وكنا بحاجة إلى الراحة، فأشرت للرائد بذلك، إلا أنه رفض بصلف. أنتم تعرفونه جيداً، تعرفون الرائد صلاح. لقد اعتاد ألا يُرفض له طلب. رد العقيد وهو يهز كتفيه بلا مبالاة : لكنه يبقى في الأخير قائدك المباشر !

كان على تخوم فرصة عظيمة لإفحام هذا الفحل الأبنوسي، فأجاب وهو يكوّر قبضته في الهواء : قائدي !! أريد من قائدي في المعركة أن يقول اتبعني، لا أن يقول تقدم !!

تسببت ملاحظته بغضب عارم، فضرب العقيد الطاولة بكفه ضربه رقص لها كل ما عليها من فناجين وأطباق وأوراق ،اذ اعتبر الرد وقاحة من جندي آبق مخالف. هدده وعضلات وجهه ترتعش، بطرده وبإنهاء جلسة التحقيق، إذا كرر مثل تلك المعصية. يحاولون السيطرة عليه، كما يسيطر الجزار على النعجة قبل الذبح.

أخذ النقيب يتدبر الأمر، ممنياً نفسه بالعثور على ثغرة قانونية. وجد مبتغاه بين دفتي أحد الكتب، فأوصى بها مقرر الجلسة لكي يدوّنها بأمر مباشر منه. وبعد دبلوماسية التقاط الأنفاس، تبرّع النقيب الشاب بالإيضاح : لقد قمت بضرب مسؤولك المباشر، مسبّباً له عاهة مستديمة، كما أنك تعتبر جندياً متمرداً، والتمرد من الأمور التي يعاقب عليها القانون العسكري بعقوبة هي إما السجن، وإما الطرد من الخدمة.

لا مجال هنا للمجادلة. اندفعت الدماء إلى وجه علي علوان وأشاح بيده : أنا لم أتمرد، أنا رقيب مخلص وملتزم، ويشهد بهذا ملفي الشخصي. لقد قام الرائد باستفزازي. على كل حال، إن ما قاله أو سيقوله الرائد، كذب، زور، بهتان، اختر ما شئت من هذه المفردات يا سيدي .شعر علي علوان بجسمه يرتعش، فقبض الحارس على كتفيه بشدة محاولاً تثبيته، بينما احمّرت عينا الرائد صلاح ولاح فيهما غضب صريح.

على الرغم من خبرته الطويلة والعريضة بالحياة والناس، لم يسبق وأن استمع العقيد عبدالعزيز الشريف إلى وجهة نظر جريئة من هذا النوع. لذا، جاء رد فعله طبيعياً ومتوقعاً، إذ أخذ يدير دفة الحديث بلهجة كلاسيكية، متمسّكاً بمفهوم الدفاع عن شرف زميل المهنة، ثم طلب من معاونه النقيب الشاب أن يتلو عليهم ما تيسر من قانون العقوبات .نشطت منابع الحكمة لدى النقيب مهندس القانون، وأخذ يتفنن بتفصيل بدلة الإدانة. تحدث دون توقف، سارداً كماً رهيباً من المعلومات، استناداً إلى قانون العقوبات رقم كذا، المتفرع من المادة كذا، قمتم بكذا، وعقوبته كذا.

شعر علي علوان بالغثيان، بعد أن جال به النقيب في معظم جوانب عالمه العجيب. كان النقيب الشاب يشعر بالزهو من كونه يعرف الكثير مما يجهله المدان، فيزيده ذلك تعالياً. كان يبتسم بتعجب لهذا الخطاب السيادي ولهذا الكم الرهيب من الإدانات الملفقة، وكم تمنى أن يجتاز المنطقة الشائكة لكي يدك بقبضته خطوط العدو المقابل .

تشاغل العقيد ومعه النقيب بتقليب الأوراق. طالت لائحة الأسئلة، لم يجدوا من المدان أي جواب سوى الصمت، وكأن سكوته فجر فيهم رغبة الكلام. عرج العقيد على جذر المشكلة : دعونا نلملم الموضوع من جديد. أنت موقفك ضعيف جداً أيها الرقيب، لهذا سنعرض عليك صفقة، رحمة بك وبمستقبلك. جاء – الأوبشن – الذي قرأه النقيب كالتالي : تتقدم باستقالتك، مقابل الحصول على تعويض نهاية الخدمة، أو تتم التوصية بصرفك من الخدمة بلا تعويض .

لم يتقبل علي علوان فكرة أن يملوا عليه شروطهم. كيف يستقيل، وأين يذهب! لقد قضى حياته كلها داخل شباك المعسكر. هبّ المارد في داخله، فاتخذ قراراً حاسماً بدا ضرب جنون. قال موجهاً كلامه للعقيد، بصوت خفيض يمتلئ غضباً: لن أستقيل، ولن تصرفوني، لقد أمضيت.... قاطعه النقيب بعنجهية : من تفتكر نفسك يا عسكري!!

أرهف الأعضاء السمع وهم يتبادلون الابتسامات. إلا أن العدوان الصريح أمد علي علوان بقوة جديدة، فأطرق، مستمعاً للنقيب وهو يعود للّحن الأساسي: عليك السمع والطاعة حتى وإن لم يوافق ذلك هواك. زأر علي علوان كأسد جريح، كان جسمه يرتعد من الغضب ودقات قلبة تتسارع، فقال وهو يعلم جيداً بأن نفس العقيد المتورمة لن ترضى بهذا الكلام : أهم ما أملكه كرامتي، ولن أخضع لأي ضابط لا يحترمني، وافعلوا ما بدا لكم ! اضطر حينها العقيد لإنهاء التحقيق، قائلاً بنبرة جادة لا تظهر سوى في المسلسلات: هل لديك أقوال أخرى! لم يعد هناك ما يقال، حسم علي علوان أمره بالصمت .

أومأ العقيد للحارس بالانصراف. قال الحارس وهو يجذب علي علوان بشدة وخشونة : تحرك يا عسكري . وقف علي علوان منتصباً، وقبل انصرافه من المكتب، لاحت منه التفاتة إلى الرائد صلاح، فقال بصيغة الشك والتساؤل، وبصوت مسموع : أليس من الخطأ أن يكون الجاني والمجني عليه في المكان نفسه، أثناء جلسة التحقيق!؟

بينغو! أصابتهم القنبلة بالذهول. انتصار صغير، لكنه هام بالنسبة إليه. لم يتمكنوا من تفادي الملاحظة. ابتسم علي علوان باسترخاء، تجنب النظر إليهم مثبتاً عينيه على ساعة الحائط. وكما يحدث عادة في مثل هذه المواقف، أو كما هي عادة المسؤولين في كل زمان ومكان، جرت مفاوضات هامسة، جرد سريع لحسابات الربح والخسارة. رد العقيد بعناد : انتهى التحقيق. سيتم الحجز عليك حتى يأتي الرد من القيادة العليا.

تشكلت في داخل علي علوان علامة استفهام كبيرة. هز رأسه بأسى. خرج من مستنقع الأحداث وانسحب إلى الردهة. اقتاده الحارس إلى الخارج، ثم إلى العربة، ومنها إلى المعسكر. كان كل شيء مرسوماً بدقة. تم اقتياده إلى زنزانته لأنه خالف مادة لا يعرفها في قانون لا يفهم فيه. عاد علي علوان إلى الجحيم ... إلى الدرك الأسفل منه تحديداً.

★

حين عاد علي علوان إلى مؤسسة التأديب والإصلاح ودخل زنزانته، كانت الساعة قد قاربت الواحدة ظهراً. خلع بذلته وارتدى ملابس السجن. تلفّت وهو يذرع حجرة السجن بعينين حزينتين، فشعر بالاختناق وبرغبة مفاجئة بالبكاء. تمدد على الدكّة وتلفّع بالبطانية الخشنة، ثم انكمش متكوّراً، كالطفل في بطن أمه. بكى نفسه، بكى حامد، بكى أباه الحاج علوان. فزاد نشيجه المكان كآبة على كآبة. أخذ يلعن الدنيا، والناس، والظروف.

أجفل من صوت الحارس وهو يفتح الباب، حاملاً صينية الغداء، واضعاً إياها على الأرض. مسح علي دموعه وأزاح البطانية، ثم نهض ببنيانه الاسمنتي المسنود بالغذاء الدسم والتمرينات الرياضية، وهبط جالساً القرفصاء ليتناول العدس بتلذذ. أنهى وجبته وأزاح الصينية جانباً. وقف معتدلاً ثم جلس على الدكة، وضع ذراعيه خلف رأسه ومال إلى الخلف. مد يده متحسساً بطنه، ثم ابتسم بمرارة بعد ان استيقظت في نفسه الأسئلة. كيف سيثق به زملاؤه في الكتيبة ! بل كيف سيشرح لهم

موقفه، وبأي لهجة سيفهمونها! كل شيء يُغتفر إلا الانكسار، هزيمة شخصيته التي بناها ووضع لها قناعاً مع ارتدائه البذلة العسكرية.

تمدد متنهداً في صمت واستكانة. تذكّر أباه المقعد، وأمه العليلة النظر، فشعر بتأنيب الضمير. كم وعدهما بالذهاب لأداء العمرة، إلا أنه وفي كل مرة قرر أن يفعل، أتاه عبر الهاتف صوت يطالبه بالعودة إلى المعسكر لأمر طارئ، فيترك كل شيء ليذهب إلى المجهول.

مضت السنون والروتين الممل يقتله، طوابير، وخفارة، ودورة، ثم مهمة. تمارين لا تنتهي حتى تبدأ غيرها، حفر للخنادق، ونصب للخيام، والبحث عن حقول ألغام، أو بمعنى أدق، البحث عن الموت لتفاديه، صرامة تنفيذ الأوامر وشدّتها، حقارة هذا وسطوة ذاك، التوجس خيفة من الضباط وأيضاً من الوكيل، التفتيش اليومي لعهدته العسكرية، حقيبة المعركة، الخوذة الحديدية، البندقية، هندامه وسريره وأظفاره وشعره ولوازم عسكرية أخرى...

فرّت دمعة عاجزة من عينيه، بعد أن قفزت إلى مخيلته طفولته التي قضاها في حارة منسية مهملة، بين بيوت شعبية متماثلة متجاورة تعزلها أسوار، وتقربها قلوب. خطوات كهول يلاحقهم ضجر الصباح ووحشة المساء، وأزقة يمخر عبابها دبيبُ أقدام نساءٍ متعجلات، تقودهن غريزة الطريق إلى دواعيس رملية ضيقة، تحولها الأمطار إلى مدينة عائمة فوق المياه. غارات مفاجئة لباعة جوالين يطلقون أصواتهم على مداها، تاجر الخلقان، بائع السمبوسة الماكث بجانب

أشيائه، بوطبيلة وصياحه في رمضان ... ثم زيارات موظف تعداد السكان بقميصه المشجّر، وإيقاعات فرقة معلاية، وضجيج مكبرات خطبة الجمعة. إلى المسجد، يلج المصلّون جماعات وفرادى، تخشع الأنفس، ثم سرعان ما تعود لطبيعتها ! كانت السكيك في الحارة تمتلئ حتى الثمالة بالدهماء، والشحاذين، يتخالطون مع أطفال من كل صنف ولون لا يأوون إلى بيوتهم إلا مع الغروب، فتختفي صيحاتهم وينتهي ضجيجهم.

تنهد علي علوان بعمق حين تذكّر أصدقاءه، حامد وخليل وجسار. كانوا من جيل حاول أن يتمرد، إلا أن طموحاتهم تحطمت على صخرة العادات والتقاليد. ثم حضرت صورة أبيه وهو يجمع أشياء قديمة مهملة، ملقاة في عرض الشارع، أقام لها الحاج في بيته صندقة من الصفيح ذات درفتين خشبيتين تغلقان بقفل غليظ، سقفها من جذوع نخل ضُمّت إلى بعضها وربطت بحبال من الليف. في هذه الخرابة الشبيهة بمخزن بيت أثري من القرون الوسطى، تراصت أوعية مبيدات حشرات، وصناديق خشبية، وكراتين مكيفات، ومعاول، ومحاريث، وهياكل لدراجات نارية صدئة، ومكنات خياطة، وأنواع مهترئة من إطارات السيارات، وأوان نحاسية وفضية قديمة، وصحون، وطاسات، وقدور، وفوانيس، وفؤوس، ومواسير حديد، وحبال، وبراميل، وحطب، وعلب وقناني فارغة لمشروبات غازية، كراش وشاني، تيم، وبيبسي كولا...

كان بيتهم هو الثالث للداخل إلى الحارة من جهة اليمين، يقابله مباشرة بيت الأرملة أم حامد، وبينهما فراغ فسيح. فيه ولد مع أختيه فاطمة ومريم، وكان يتألف من ثلاث غرف مختلفة الشكل والحجم، يربط ما بينها ممر صغير ضيق يفضي إلى الصالة التي بدورها، تطل على فناء واسع تقوم على طرفه نخلة، وفي ركنه زريبة للأغنام وقن للدجاج، كانت روائحهما المختلطة بروائح الخشب المتهالك، تباشر الداخل ما أن يطأ عتبة الدار. كانت هناك أيضاً بئر حفرها الحاج علوان، تحسباً ليوم عبوس تختفي فيه تناكر البلدية.

أغمض علي علوان عينيه بشدة حين تذكّر حجرة والده، وراح يعيد رسمها في ذاكرته، تفصيلاً تلو تفصيل. سرير من خشب التيك، مع أربعة أعمدة علقت عليها ناموسية لاتقاء البعوض. قبالته، صندوق مندوس من خشب الزان، مزين بصفائح معدنية مثبته بمسامير ذات رؤوس دائرية، وزعت لتشكل زخارف جميلة تغطي معظم الأجزاء. في الجانب الآخر من الحجرة، خزانة بدرفتين للملابس، باكستانية الصنع، ينتشر في زواياها شذا الطيب، وروح الورد، وزجاجات عطر، هي كل متاع أم علي في الحياة. في ركن الحجرة، تسريحة عليها مكحلة ومشط تتشابك فيه خصلات شعر، تستعمله أمه، ثم تعيده إلى مكانه بحرص شديد كأنه تحفه كريستال.

على أحد الجدران، مشجب من مسامير عليه أردية عتيقة، عباءة وجاكيت باهتة وبالطو عسكري، وفي الأرض حصير للصلاة وطاولة

صغيرة عليها أقراص أسبرين، راديو من نوع ilmenanu فرنسي الصنع، ومسجل فيليبس، مع عدد من الأشرطة لفنان محلي شهير، مزهرية فيها زهور بلاستيكية باهتة، وصور مهترئة التقطت من كاميرا بولارويد. على الحائط روزنامة، وصورة ملونة شاحبة للحاج علوان بقميص أبيض وبنطلون شارلستون أسود. التقطت له في إحدى سفرياته النادرة إلى قاهرة المعز لدين الله.

غادر علي غرفة والده ليدخل حجرته الخالية من النوافذ، التي يغطي أرضيتها مشمع، ويُظهر سقفها عروق حديد صدئة تركها المقاول ذكرى لفساده. تذكّر كيف كان يجلس أمام التلفزيون محملقاً في شاشته التي شبك فيها من الخلف أسلاك الفيديو، ومندمجاً بكيانه في متابعة بطل مراهقته، بكبريائه الفطري الشامخ، بروس لي، وكيف أنه -قبل أن ينهي طفولته الشاقة- قام بتربية كلبة أطلق عليها اسم بوبي! لم يكن يومذاك يميّز الفرق بين المذكر والمؤنث في الأسماء الأجنبية. وكان أمام خيارين، إما بوبي أو جاك. في موسم خصوبتها، أنجبت بوبي ستة جراء، بعد أن عوشرت من كلب أحد الجيران. جاءت ليلتها تتشمم، وتتسلل، وتتمسح بمودة، بين قدمي الحاج علوان.

تململ علي علوان فوق الدكة وهو يجاهد لنسيان خرمه ورغبته بالتدخين. انتبه إلى وقع أقدام ثقيلة تقترب، تبعها صوت السجّان يصرخ من خلف باب الزنزانة، وهو يعبث بعود كبريت بين أسنانه : هيا انهض، الضابط المناوب يريد رؤية جميع المساجين. تسلل علي علوان خارج

زنزانته بهدوء وخضوع وانكسار، لاعناً الدنيا والظروف التي لا تعرف للناس أقدارها.

وقف جميع المساجين في باحة السجن، صفاً منتظماً في حالة استراحة، الصدر مشدود إلى الخلف، والساقان منفرجتان قليلاً، واليدان معقودتان خلف الظهر. حاولوا التصالح مع وضعهم الجديد وهم ينقلون ثقل أجسامهم من ساق إلى أخرى. إلا أنهم، وبعد ساعة من الوقوف في الشمس الحارقة، راحت أمواج الإحباط واليأس تتقاذفهم، فأصيبوا بالملل والإعياء، وأصبحوا مستعجلين الوصول إلى نهاية الفيلم.

ظهر فجأة وكيل السجن، فاستعاذ الجميع بالله من سحنته الكئيبة وتكوينه الجسماني الضخم، وحاجبيه الكثيفين الثقيلين الهابطين حتى منتصف عينيه. أخذ الوكيل، يحذر، ويهدد، ويشتم، فتحولت الباحة إلى بؤرة استفزاز لا ترحم. ثم ظهر الضابط المناوب، متقدماً الطواقم البشرية، واضعاً البيريه ذات الشعار المعدني، في عروة كتفه، مباشرة تحت النجوم الثلاث. ألقى السلام في وقار، وأخذ يتفرّس في وجوه المساجين كأنه يمتحن أثر حضوره في نفوسهم. سأل عن أحوالهم، وعن طعامهم، فلم يتجاسر أحد منهم على الرد، وقد وضع الوكيل سبابته على شفتيه طالباً منهم السكوت، وعيناه ترقبانهم وتحملان لهم وعيداً مبطناً. سار النقيب متفقداً الطابور، إلا أنه ولسبب غير مفهوم، وقبل أن يخطو عائداً إلى مكتبه، استدار فجأة حتى صار بمواجهة علي

علوان، فنظر مباشرة في عينيه، متلفظاً بعبارة يُقصد منها الاحراج : ضربت ضابطاً يا بطل!

هي الحرب إذاً ! فكّر علي علوان في سره، فيما اشرأبت أعناق المساجين شغفوفة بما سيقوله، ووقف معاونو الوكيل متفرجين، متحفزي الحس والحواس. حنى علي رأسه إلى الأرض محاولاً تجاهل نظرات النقيب، فصاح الأخير في لهجة آمره : خذوهم لتنظيف الحمامات، قبل أن يجيئه الدعم على الفور من الوكيل الذي تراقص شارباه غضباً، وأخذ يرعد ويبرق ويرغي ويزبد، ويشوح بيديه يمنة ويسرة، في عنجهية وصلف، قائلاً بلهجة استعراضية : هيا، إلى الحمامات، إلى الحمامات يا أوباش.

تحرك المساجين كل حسب مصابه ومصيبته، دموع وأوجاع مكبوتة، وشكاوى، وأحلام مؤجلة. تبعثروا في الحمامات وانغمسوا بالتنظيف. كانت الروائح منفّرة إلى حد الغثيان. دلقوا سطول المياه على الأرضية المتسخة، مسحوا الأوساخ والقذارة، ثم شطفوا، على أنغام شتائم مجنونة أطلقها الحرس، بينما راقب الوكيل بقامته الكابوسية الباردة الجميع، عاقداً يديه على صدره، مبتسماً بأعصاب باردة. ولأن البؤس يقرّب بين الناس، مدّ أحد الرفاق يده لعلي بسيجارة مع كبريت، فتلقفها بولع، مع استغرابه كيفية ادخال السجائر رغم الحراسة المشددة، ومع شعور هائل بالامتنان لهذا الشخص الغريب، الذي سيدفع من ثم ثمن حماسته، بالحبس ستة أشهر، بسبب تهريبه أفلاماً وثائقية.

★

عاد علي منهكاً إلى عرينه قبل الغروب بقليل. استلقى كالقتيل على الدكة، ثم مال بجسده ومد يده إلى الأسفل، محاولاً التقاط قنينة الماء. شرب حتى ارتوى، ثم أخرج من جيبه السيجارة وأشعلها، ملتهماً دخانها بشبق. استرجع ما قاله النقيب، فانتابه انفعال قوي، تقلب ونفض عنه التعب وجلس بتكاسل. مر من أمامه طيف أبيه الحاج علوان، فابتسم وهو يتذكّر كيف كان تقليدياً، عفوياً محافظاً، داخ في دروب الحياة كدوخة ماجلان وهو في طريقه لاكتشاف رأس الرجاء الصالح.

كان الحاج في أواخر الخمسينيات، أسمر البشرة، رفيع القامة، مع تقوّس خفيف في الكتفين، يغطي النمش رقبته، ويظهر على وجهه شقاء السنين، مع انكسار ظاهر يطل من عينيه ومن أخاديد وجنتيه التي تظهره أكبر بكثير من عمره الحقيقي. كان الحاج لا يكف عن التجوال في الحارة كطفل شقي عابث، يمشي متخشباً دون أن يرفع قدميه، مردداً أبيات شعر، أو مسبّحاً بالحمد والخواتيم، في همس لا ينقطع، هذا حين لا تغمره الانفعالات الخارجة عن السيطرة فيقذف لسانه

الجاهز للانفجار في أية لحظة، عبارات فاحشة تصيب غريمه بالخرس والشلل، فيتساءل الناظر إليه، أين تراه كان يختزن كل هذه البذاءات؟

يعيش الحاج علوان الحياة بأقصى طاقة ممكنة. فكّر علي، فشظف العيش قد جعله يتحايل دوماً كي يبقي عائلته مستورة إلى آخر الشهر، في ظل موجة جوع متفشية بين الناس. النقود قليلة والبطون كثيرة تحتاج إلى معين لا ينضب. لفظته الأسواق بعد أن ازدادت قائمة المطالبين وطالت، راعي الدكان، والدوبي، والخباز، والحلاق. وقد كانت للحاج أفعال غريبة، إذ يذهب إلى التسوّق أيام الرخص، فيفاوض ويتأمل وينظر ولا يشتري، وفي موسم الغلاء يطوش عقله وينقبض قلبه، فيشتري.

وعى علي على الدنيا وأبوه متقاعد، يروي له دوماً وأبداً وكلما هفه الحنين كعادة كبار السن، تاريخه الذي يمتد من بداية عمله بشركة نفط، وحتى تقاعده من قوة ساحل عمان، مروراً بعمله كسائق لإحدى سيارات المسح. وعلى الرغم من أنه هوى مهنة السواقة، إلا أنه لم يمتلك أية عربة باسمه، وإن انتقل من بعدها للعمل كعسكري وبمهنة سائق. كان صلباً، عفياً، قوي الذاكرة، لا يبلع المقويات أو يشرب المكيفات، ما عدا غليونه – مدواخ – المصنوع من خشب الصندل، يدسه في ثوبه الكالح ولا يخرجه إلا عند اللزوم. كان المدواخ بهجة حياته، يخرجه في طقس شبيه بطقوس الهندوس في حلب الأبقار، يقوم بنفخه لتنظيفه، يلقمه تعميرة تبغ صاهرة من مضرب بلاستيكي،

ثم يسحب من بعدها نفساً بعمق وشراهة، فيتفاعل نيكوتين الدوخة مع قشرة الدماغ، مهيجاً فصوص المخ الأربعة. حالة مزاجية وسلطنة عالية، يفيق من متعتها العابرة، لتعود وتركبه العفاريت.

كان الحاج يمضي أغلب يومه داخل الإمبراطورية التي لا تغيب عنها شمس الشاي والقهوة والنارجيلة، في مقهى صفصوف. منذ دخوله، يبدأ بمعاينة المقهى بدقه، استعداداً لمناكفة رواده القليلين من أهل المزاج، الذين ألفهم. يشرب شاي السنجيل على مهل، ويأكل النخي، ويستغرق منشغلاً بكل ما هو بسيط وسطحي وعرضي. كانت متعته الحقيقية لعب الدومينو، والمرابطة في العصاري والأمسيات، أمام باب البيت بهدوء، بجوار الكلبة بوبي، ومراقبة الخادمات وهن يجتمعن عند مكب النفايات، عصر كل يوم، ليهرش بين فخذيه بلذة!

ارتجف بدن علي علوان عندما استعاد معاناته مع والده الذي كان على قناعة من أن علي، دون أخواته، هو عمله السيئ الذي لابد أن يكون قد ارتكبه ذات يوم، دون أن يدري، وطفولته البائسة التي لا يذكر منها سوى مشاهد الضرب. كان الضرب عملة الحاج الوحيدة المتداولة، كأنه ينتقم في شخصه الضعيف من نذاله البشر وخسة الفقر. كان يربّي علي بطريقة احترافية رصينة، بأسلوب الرجل العسكري الذي يعدّ ولده ليكون أفضل منه. الضرب بخراطيم المياه، السلخ بأسلاك الكهرباء، الجلد بالحزام، أو بخيزرانة منقوعة بالماء والملح. كل هذا يدهم علي فجأة، كالقضاء المستعجل، فينطرح فوق جسده كيفما اتفق،

وبلا رحمة. يصيح الصبي ولا من مجيب، وأمه بطبيعتها النقية وهدوئها العظيم، لا تحرك ساكناً، بل تقبع في زاوية بعيدة تراقب ولا تتدخل، إلا بعد أن ينتهي الحاج من مهمته، فتجلس إلى جوار علي مشدودة كالرمح.

شرع المؤذن يؤذن لصلاة العشاء، ففتح علي علوان عينيه بعد أن راح في نعاس متقطع. أصاخ السمع، فسرت في جسده رعشة جلال اللحظة، خشع قلبه وشعر بالهدوء، وفي ذلك الجو الصامت صمت الليل، تطايرت دعوات متآكلة الحروف من فمه دون انتظام، ألقى من بعدها برأسه على اللحاف، وراح في نوم مطمئن عميق.

★

أمضى علي يومه الرابع في تتابع رتيب. يأكل، ويشرب، ويتمرن، ويغسل الحمامات، وينام نوماً متقطعاً، ويستيقظ على أحلام غريبة، وكوابيس مزعجة. مع الوقت، استطاع علي علوان أن يألف جو السجن. وإن كان أمله في الإفراج يتقلص.

وفي اليوم الخامس من الحجز، انتفض علي من نومه على صوت استغاثة أذان الفجر. فرك عينيه وهو يتثاءب، تمطى حتى طقطقت مفاصله، مسح بنظره أرجاء محبسه المظلم، ثم نهض متثاقلاً، بعد أن استفزته رائحة العفن والرطوبة. بحث في حيزه الضيق عن نسمة هواء مفقودة، ووصل شعوره بالاختناق إلى غايته. مع هذا، غمره طوفان من الحماس، فقرر أن يملأ وحشة سجنه بالتمارين. شرع في خلع ملابسه، أبقى على سرواله الرياضي القصير. بدت عضلاته مرنة مطواعة، فأخذ يتمرن كأنه يستعد لمنازلة خصم، عتيد، رهيب، غامض. قهرت أصوات أنفاسه، صمت الزنزانة الوحشي، إلى أن تمكّن منه الجوع والرطوبة العالية.

جلس على الدكة سانداً ظهره إلى الجدار الرطب. بحث عن

فوطته ليمسح بها غزارة العرق. مال بقامته يتلمس موضع الرصاصة التي هتكت عظمة ساقة اليسرى، شعر بالانقباض، وبقشعريرة تسري في جسده. عادت إليه ذكريات حرب الخليج، حيث اختلطت الوحشية، بالشقاء، بالتعاسة. طنّت في رأسه أصوات أزيز رصاص متقطع، تأتي من كل اتجاه، دوي مدافع، صور بقايا جيف ممزقة، أجساد مسلوخة، وغيمة دخان، نشرت الظلمة في عز النهار.

في أواخر يناير، في ليلة مظلمة ممطرة كثيرة العواصف، أنهى علي علوان نوبة حراسته على إحدى بوابات معسكر أقيم بالقرب من مدينة الخفجي، حيث تمركزت قوات التحالف الدولي، ثم عاد إلى أقرانه فجلس يسامرهم في خيمته، وهو يفرك عينيه المنهكتين من قلة النوم. وما هي إلا دقائق، حتى استأذنهم بالذهاب إلى الخلاء لقضاء حاجته. مضى مبتعداً، محتمياً بواقي الرصاص ورداء واق من المطر، بندقيته على كتفه، قنينة ماء كبيرة بيده اليمنى، حزام عريض حول خاصرته يحمل عتاده: ثلاث قنابل يدوية، مخزن للذخيرة، ومنظار ليلي. توارى حتى ابتلعه الظلام. لكن شعوراً بالتوجس والتشاؤم استولى فجأة عليه، فنظر حوله في جزع وقد اجتاحه خوف من يدرك أن شيئاً سيئاً سيقع.

وما هي إلا لحظات حتى ألقى علي علوان نفسه زاحفاً في الطين والوحل، محتمياً خلف نباتات شوكية مؤذية، جامعاً في طريقه أعواداً من حطب مبلل، وأغصاناً طائشة كوّمها فوقه للتمويه، ثم تمدد في

صمت واستكانة. بعد مضي دقائق حسبها دهراً، أخرج منظار الرؤية الليلية من جرابه، أزاح النباتات الشوكية بمقدمة سلاحه ونظر إلى المدى المقابل.

أشباح تنتشر على الأجنحة استعداداً للالتحاق. جنود يحملون البنادق رؤوسهم متدلية إلى الأرض، أنهوا عملية التفاف ومحاصرة وتطويق ناجحة لقوات التحالف، وآخـرون بخوذات حديدية، متمترسون متربصون، ببنادق للتخلص من أناس غير مرغوب فيهم. عيون قناصة متلصصة، تتقد شهوة من شدة الرغبة في القتل، فدائيون خلف متاريس رملية، يصوبون الـ- آر بي جي - ومدافع الهاون، باتجاه أرتال القوات المتحالفة.

كان علي مرتعباً لا يدري ماذا ستكون عليه الحال بعد دقيقة، تسرّب الخوف إلى أعماق أعماقه، فلامس بجبينه الأرض. حجبت غزارة الأمطار الرؤية عنه، التفت حوله محترساً، حذراً، جزعاً، موقناً أنه واقع في كمين.

غام كل شيء من حوله، أفرز جسده كيمياءه الخاصة، تسارعت دقات قلبه، تقطعت أنفاسه، كفّت رموشه عن الحركة، وهام بصره في فراغ مباغت. غاص في أعماق نفسه، شارد الذهن على حسرة سؤال لا ينفضّ، عن سبب وجوده هنا!! لماذا يحدث ما يحدث ؟ هل النفط يستحق كل هذا!! ما الذي أوقعه في مأزق لا تلوح نهايته؟ غارت الأسئلة في أعماقه، مخلفةً تيهاً ويباباً.

ثم توصل علي علوان إلى قناعة أن نهايته تسير في طريق واحد. ولكن، لماذا الخوف من الموت! كيف يخاف الموت وهو الملاكم الذي يتحداه يومياً في حلبات الملاكمة! أين ثقته واعتداده بنفسه؟ أصبح هدفه الوحيد أن ينجح في البقاء حياً، ولو يوماً إضافياً. هيأ علي نفسه لتقبل الآتي الصعب. انشق الصمت الكاذب فجأة، انفجر التراب في زوبعة خاطفة مع صوت قوي مخنوق، سقطت قذيفة عشوائية مباغته من طرف الحرس الجمهوري العراقي. خلق الانفجار في نفسه رهبة أسكنته دوامة من الرعب، غمغم ببسملة الخوف، طالباً من الله أن يخطئه الموت!

أيقظت القذيفة المجنونة الحامية، رشقات رشاشة من خنادق وتحصينات الفرقة العراقية المدرعة. رُفعت حالة التأهب في خطوط قوات التحالف. بوغت المهاجمون، بعد أن تحولت مواقعهم إلى أرض ينبعث منها الجحيم. صبّت عليهم قوات التحالف العذاب صباً، دكت مواقعهم راجمات الصواريخ، بحمم كأنها نار المجوس التي لا تنطفئ.

نقل علي نظره باحثاً عن ساتر يحميه من القذائف، أو الشظايا، أو الفخاخ المميتة. استمرت المناوشات، دوى صوت نفير إنذار من احتمال إطلاق الحرس الجمهوري، غاز الأعصاب الكيماوي. حنى علي رأسه كجرو خائف مطيع، باحثاً عن قناعه الواقي، لكنه ما لبث أن أيقن أن مشواره في الحياة، قد توقف عند فصله الختامي....فقد نسي القناع في الخيمة!

رنّت كلمات التحذير في رأسه – السهو فيما لا يجوز فيه السهو، قد يكلف الجندي الكثير... حياته! خطأ مميت لم يقصده، وعليه أن يستعد لعواقبه الوخيمة.

مستقراً في مكمنه، استنفد علي مخزن ذخيرة بندقيته، في تشتيت انتباه المهاجمين. شعر أنه مقبل على موت محقق، لقّم بندقيته بمخزن ثان، مزيحاً الحربة من السبطانة. أحسّ وسط الظلام بحفيف يقترب منه، وبوغت باقتراب أحد الجنود، زاحفاً، مطلقاً وابلاً من الموت، من فوهة بندقيته. استقرت إحدى الطلقات في ساق علي اليسرى، فارتج كيانه. بغضب مهيمن، وروح مقبوضة بالجنون، صرخ هاتفاً، في جرأة اليأس...أوغاااااد، ثم أفرغ ذخيرته في جسد الجندي فأجهز عليه. أكمل ضرب الجثة بمؤخرة بندقيته بقسوة، صارخاً بهستيريا: لكم الموت، أوغاااااد!

رغم فظاعة الألم، وفي محاولة للدفاع عن حقه في البقاء، حمل علي علوان جراحه زاحفاً، مستنجداً بساقه السليمة، إلى إحدى التلال القريبة. اتخذت حواسه وضع التأهب، صدره ينتفخ ويتقلص من لهاث عميق. التفت وجسده يرتعش إلى الخلف، فرأى مهاجماً آخر يتقدم. ألقى بقنبلة يدوية، إلا أن الجندي تفاداها باقتدار.

التحم المتحاربان في نزال عنيف. تشابكا بالأيدي، غرس علي نصل حربته في صدر المهاجم، ثم في أسفل بطنه. شدّ المهاجم يده إلى بطنه محاولاً إعادة ما نُشر منها. لف علي علوان زنده العريض حول

عنق الجندي، حازاً رقبته، فهمد وهو يخُر والدماء تكسو ثيابه. أكمل بعدة طعنات متلاحقة، مزقت ضلوع صدره، صائحاً فيه بفزع: اللعنة عليكم.

فوق حضيض الأرض المبلولة، بصق علي علوان أسنانه الأمامية، تجلط الدم فوق جسمه وسترته العسكرية، واستقرت صلية رصاصة في عظمة ساقه اليسرى.

نفض علي علوان رأسه وأرجعه إلى الوراء فما احس برطوبة الجدار. غزته حينها صورة الاستنفار الذي يعلن في بيتهم، مع ظهور نجم الثريا الدال على بداية دخول فصل الصيف. كان انقطاع التيار الكهربائي، مناسبةً تدفعهم للجري بحثاً عن شموع تضفي على جلستهم أجواء رومانسية مفقودة. رأى أمه وهي ممددة على أرضية الصالة، مستغرقة في نومها، وأباه الحاج علوان، وهو يتخفف من ملابسه حين يضيق صدره، وتنكتم أنفاسه، يحل عصبة رأسه التي شقي في اختيارها، يخلع كندورته المهلهلة، ويبقي على إزار مقلم وفانيلة نصف كُم باهته اللون مائلة إلى الصفار، ماركة كابتن. يفترش السجادة التي ضاعت ألوانها بفعل تقادم الزمن، صاباً اللعنات على دائرة الكهرباء، مسؤوليها، مهندسيها، موظفيها، سائقيها، ثم يهرع إلى طرف الحوش ليحتمي بظل نخلته الوحيدة التي عمرها من عمره، ويكمل السباب والسخط حتى يعود التيار، أو يعود مزاجه إليه.

ضحك علي علوان مغمض العينين، ثم خرجت له فجأة، من

أعماق ذاكرته، صورته صبياً مع أصدقاء طفولته. حامد، الفتى الوسيم، وبشكل لافت، المراهق الأمرد الذي استقرت شامة الحسن على خده الأيمن. كان يعتقد كل من يراه أن هناك خللاً ما حدث في الحساب! أمه الأرملة التي غالباً ما تأتي سيرتها مقرونة بالتدني والغمز الخبيث، تؤمن بالغيبيات وبالحسد. لذا فقد ألبسته طفلاً ملابس الفتيات، لطخت وجهه بالطين وبالنيل، أطلقت عليه اسم نورة. ومنعته من مغادرة البيت حتى لا يفترسه أحدهم في الخارج. كانت النتيجة أن ظهر حامد رخواً، طرياً، هشاً، لم يرث من المرحوم أبيه أية صلابة يكافح بها الزمن.

أما جسار، فقد كان حدثاً جللاً بكل المقاييس، ارتجت له الحارة حين استقرت أسرته فيها، بعد طواف عظيم بحثاً عن مهجع. استأجر الأب شقة بغرفتين، ومطبخ، وحمام، من جار مشاغب، ضرب الرقم القياسي في الزواج من فتيات، شهيات، فاتنات. كان جسار، أبيض اللون مائلاً إلى الحمرة، ضخم الجثة، متهدل الثديين، يغوص رأسه في جسمه حتى ليبدو كأنه بلا رقبة، عريض الحوض، يرفل بقميص واسع وبنطلون قديم. حين صافحه صبية الحارة باهتمام وحفاوة لدى قدومه إلى الحارة، ارتسمت على محياه يومها نظره بلهاء وهو يتلفّت حوله كالأرنب مذعوراً.

بالنسبة إلى خليل، فقد كان أكثر الأصدقاء مرحاً، وأفدحهم مجوناً. كانت الفتيات، هن المجال الحيوي في حياته. عاش حاملاً الاعتقاد السائد، أن النساء فريسة طبيعية للرجال. شهدت مكالماته،

السلكية، المسائية، كثيراً من مغامراته الغرامية، مع فتيات، دامعات، مكلومات، آهات حارة، وتنهدات، وعشرات القُبل. كانت أية محاولة لمناشدة ضميره، ضرباً من العبث، لهذا أطلقنا عليه لقب... خليل الغاويات.

شتتت حرارة الصباح تداعي الصور في ذاكرة علي علوان، فجثا على ركبتيه عند باب الحبس الحديدي، يختلس النظر إلى فناء السجن الواسع. رياح خفيفة بصفير خافت تثير نباتات لم يمسسها بشر ولم يقربها سماد، شجيرات هزيلة ذابلة متباعدة، تشكو الظمأ وجفاء عصافير لم تحط عليها ولو لثانية. استغرقه المنظر، حتى لاح في الأفق حارس، بوجه أشبه بقدر فخارية سوداء، وأسنان متآكلة، وشفتين غليظتين، حاملاً صينية الإفطار، ومتقدماً بها في اتجاه الزنزانة. نزع علي جسده عن الأرض، طالباً في لهفة، الذهاب إلى الحمام. تحاشاه الحارس، مزمجراً، وخطواته تنسحب إلى الخارج : ممنوع.

تربع علي على أرضية الحبس يأكل، هاشاً الذباب عن الصينية. أنهى طعامه، وضع الصينية بذراعه المعروقة حذو الباب. ثم أخذ يجرع الماء باستمتاع ظمآن أبدي، ثم هب واقفاً متكئاً على ركبتيه المتيبستين وراح يجوب الزنزانة من أقصاها إلى أقصاها، طالباً في هيجان عصبي، الذهاب إلى الحمام. كان هذا الطلب بالذات، يسبب صداعاً لإدارة السجن. اللوائح والتعليمات، تمنع الزيارات، وهي كذلك تمنع الذهاب إلى دورات المياه، عدا في ساعات معينه. بعد طول زعيق

وإلحاح، جاءه الفرج. وقف السجان في الباب، صائحاً به والغضب يقطر من عينيه : هيا، تحرك.

ارتدى ملابسه على عجل، انتعل مداسه، واجتاز مع الحارس الردهة، ودخل الحمام. شعر بالقرف، والغثيان، فلم يستطع ضبط نفسه، ولفظ كل ما أكله على الفور، حتى كاد يتقيأ أمعاءه. انتفض الحارس مشمئزاً، صائحاً وهو يلوذ خلفه : الله يقرفك. وجه إليه شتائم ولعنات، ثم أمسكه من ذراعه بعصبية، عائداً به إلى زنزانته حيث تكوّم في زاويتها.

أخذت مخالب العجز والوحدة وقهر السجون تنهشه. اجتاحه خليط من الخوف، والقلق. تمدد على ظهره، وضع ذراعه اليمنى المعروقة فوق عينيه، متسائلاً في حده، ما الذي بقي لأخسره!

عند العاشرة صباحاً، صار الجو حاراً بشكل لا يطاق. انتابته حالة من الكآبة حين انطلق، فجأة صوت وكيل السجن، مخترقاً الدهليز الضيق الذي يفصل بين الزنازين : طاااااابور.

خرج جميع المساجين، على وقع صرخات هستيرية من الحراس، إلى الساحة الرئيسية. انتظموا في صف طويل ووجوههم إلى الحائط. وقف النقيب الشاب وحاشيته، مقابلين لهم عند مكاتب الإدارة، بينما انتصب وكيل السجن، نافخاً صدره مطلقاً صرخة عسكرية ناشفة، بكل ما فيه من قوة وعزم : انتباااااه. جاءهم الأمر بالجلوس، ثم بالنهوض، وقبل أن يعتدلوا في وقفتهم، أمرهم بالجلوس، ثم بالنهوض، وهكذا.

صرخ الوكيل من جديد، وقد برزت عروقه وتناثر رذاذه : المطلوب من الجميع تنظيف الساحة الرئيسية والحمّامات. نظر المساجين بعضهم إلى وجوه بعض، ثم سرت في الأنحاء نسمة تشاؤم. لكن ما هي إلا لحظات حتى انقسموا سريعاً مجموعتين، واحدة لتنظيف الساحة، وأخرى للحمّامات. أخذ الوكيل، يحوم بين المساجين، متفرساً في الوجوه، مدققاً في الملامح، بنظرات خشنة، قاسية، متحدية. كانوا جميعاً يخشونه ويتحاشونه ويتقون شره. إذ كانوا يعلمون بأنه من النوع الذي يهوى الطاعة ويفرط فيها، وقد خوّلته خبرته الواسعة في إدارة السجون، الإمساك بين يديه بكل الخيوط، ما جعله يتمتع بشعبية كاسحة، وسط أسياده الضباط.

ترامت إلى أسماع المساجين، جلبة شديدة، وضوضاء. فنهض أغلبهم مستطلعاً المشهد. انقبض قلب علي علوان بشدة، وخرج من الحمام بعد أن تناهى إلى سمعه صدى صفعات وركلات، وضربات تصطدم بجسد وأضلاع الرفيق الذي منحه السيجارة قبل يومين! شق الوكيل طريقه وسط الزحام، وهو يزأر بصوت متحشرج، عالي النبرة، كأنه ذئب محبوس. وحين وصل إلى الرفيق، هوى بقبضته على وجهه، راكلاً إياه في بطنه. بعد ذلك، أكمل الحراس، وصلة الضرب، فسال الدم على وجه الرفيق، وتجلط على بدلته، وأطلت نظرة استسلام مريع، من عينيه التعبتين، وخرجت منه أصوات تنادي بالرحمة ملتمسة الغفران. صرخ الوكيل وملامح النصر والانتشاء على وجهه: إلى

الزنزانة الانفرادية. سُحل السجين المنهك حد الانهيار، وخيّمت فوق رؤوس الجميع، سحابة من الحزن العميق.

استبسل علي لمعرفة السبب الذي دفعهم لضرب رفيقه. اندفع سائلاً وكيل السجن الذي أجابه في هيجان عصبي، أن الحيوان كان يبحث عن أعقاب سجائر، عوضاً عن التنظيف. فردّ علي مستفهماً وهل يستحق كل هذا العقاب! شعر الوكيل بكلماته تحمل احتجاجاً ملغوماً، فصمت لثوان، قبل أن يتقدم منه، محاولاً صفعه. إلا أن علي، تفاداه، وهجم عليه كصاعقة مباغته، مسدداً ضربة خاطفة، غاشمة، على فكه، جعلته يتطوّح قليلاً، قبل أن يهوي على الأرض. بعثت صرخة الوكيل موجه من الذعر وسط الحراس، رفع علي ذراعيه بحركة استسلام، إلا أن كعوب بنادقهم عاجلته، متمنيه له الهلاك في أسرع وقت.

★

منذ دخوله عالم الأسوار، اجتهد علي علوان للحفاظ على مسافة بينه وبين السجانين. فلا يمكن للسجن بأي حال من الأحوال، أن يكون تربة جيدة لإنضاج علاقه سوية بين السجين والسجان. لف السّكون المكان لعدة ثوان. أخذ الوكيل، يحجل نحو مكاتب الإدارة، بانكسار، متنازلاً عن عجرفته، وغطرسته. نظر المساجين المنتشرون إلى علي بكثير من الأسف المشوب بشيء من الإعجاب، وهو يُحمل مغمى عليه، إلى زنزانة التأديب.

حُشر علي متكوماً في الانفرادية التي لا تسمح بالتمدد ناهيك عن النوم. حجرة طولها متر، وعرضها متر . أرضيه من تراب، تفوح منها رائحة بول قديم، جدران رطبة معتمة، تلتقط الأذن فيها بوضوح دبيب الحشرات. مرت ساعات طوال حتى أفاق من غيبوبته، أحس بأنه كمن رُمي وحيداً في بئر دون قرار. جسده مثخن ووجهه متورم بكدمات زرقاء قاتمة. قضى الوقت المسفوح في حيزه الضيق، يتحسس مواضع الضربات، ويئن ويسعل ويتف دماً ملأ حلقه وفمه. شعر بالحر، والجوع والعطش. في ظل ظروفه الكئيبة، وأيامه العابسة الغاضبة، أخذ

علي علوان، يجري جردة سريعة لحياته، ويحسب ما الذي انحدر به إلى هذه الدركات.

بعد قرابة ساعة، أخذ يشعر بسخونة تأكله وتأكل وعيه، أصابته رعشة، تصبب العرق بغزارة من جبهته، تلاحقت أنفاسه. خرجت آهات تدوي من تجاويف صدره، تنادي في صمت الزنزانة على سلمى. كانت بمثابة الدخيلة على عالمه، على الرغم من أنه كان شحيحاً في إظهار مشاعره، إلا أن قلبه خفق لها، خفقةً سريعةً موجعة، هو الذي لم يعرف من قبل، مثل تلك المشاعر الطازجة التي انتابته حين لمحها مصادفةً، في بيت صديقة حامد.

طويلة القامة، ترفل في فستان أسود محتشم، يغطي رأسها وشاح يستر شعراً شديد السواد بضفيرتين طويلتين ضاربتين حتى خصرها الممشوق، وعلى رسغها الأيمن ثلاث أساور ذهبية عريضة. أثاره جمالها المختلف عن نمط الفتيات البائسات في الحارة، فبدأت تدريجياً تستحوذ على انتباهه وتستثير فضوله.

ثم تضاعف الإعجاب وتزايد ليبلغ حد الوله. فُتن بها، عشقها، عطف على يُتمها، انجذب تلقائياً إلى هالة الشجن الغامض الذي يلفها. حاول اقتحام حياتها، إلا أنها صدته بنفور. مع إصراره المستميت، وتكرار المحاولات، استطاع أن يفتح باب قلبها بالرغم من كثرة أقفاله.

اختلى بها في منزلها، يوم جمعة، والشمس تجنح نحو الغروب، في غياب أمها وأخيها حامد. اعتقد أنه لن يجد أدنى حرج أو اضطراب

أو قلق أمام جلال الموقف، إلا أنه جلس في حضرتها والعرق يصبغ وجهه. أيقن أنه شرب هواها في عروقه، أطلق العنان لعينيه تغوصان في وجهها. نضارة وفتنة وملامح شبيهة بملامح حسناوات الإسبان.

سارعت سلمى إلى المطبخ تُعد كأساً من الشاي. عادت وهزّت وجنته، لتحثه على الشرب. شعر علي بخدر لذيذ في أنحاء جسمه. أخذ يناجيها، بكت بقهر صادق، حدثته عن شعورها المرير بالوحدة، والضياع، في الغابة الكبيرة التي تسمى الحياة. نبتت في عينيها الثائرتين، دموع لؤلؤية انحدرت على وجنتيها النضرتين. احتضنها، احتواها في صدره بحنان وهو يربت عليها.

أزيحت غلالة الحشمة بينهما، كانا معاً في البيت، لا عين ترى أو أذن تسمع. داعب نداءات الأنوثة فيها، طالباً بصوت تملكته الرغبة، تقبيلها. عضّت على شفتها السفلى بدلال متمنعة، محذرة بشكل مقتضب، بتعكير جوّ المودة والاحترام. أيقظ تمنعها وحش غريزته المكبوت، وهو البتول الذي ما زال لديه الكثير في الدنيا لاكتشافه. كان متلهفاً لمقارعة جسدها. اقترب ممسكاً بذراعها، فتسمّرت في مكانها. ظلّت عيناها معلقتين في عينيه. استوت جالسة، سألته بصوت مبلل بالدموع، وبنبرة تنمّ عن ضعفها، عن مشاعره تجاهها. مرّر باطن كفه الأيمن على خدها، مكفكفاً دموعها، ومجيباً بصوت العاشق أنه يحبها، فرضخت وتجاوبت مع قبلته، إلا أنه كبح جماح الرغبة، مؤنباً نفسه على هذا التهور.

ازدحمت ذاكرة علي المحمومة بصور تفرض وجودها فجأة، على غير انتظام. وتقذف إليه بشبح أمه بحفيف ثوبها وطبيخها البسيط ذي الصنف الواحد، وبذكرى نكبتين حلتا في حياته، أولهما هي صفعة تلقاها فوق صدغه وجعلته يلتف حول نفسه، من عبدالقيوم صاحب الدكان وصاحب العلاقة الآثمة التي قامت وتطورت وانتهت في زمن قياسي، مع خادمتهم.

حين أصيبت أم علي بروماتيزم حاد في مفاصل ساقيها، قرر الحاج علوان إحضار خادمة ترعى شؤونها وتلبي حاجات البيت. جاءتهم خادمة سمهرية القوام تدعى سوريانا، سعيدة دوماً، مبتهجة ومختالة بما تحدثه من دربكة بين أبناء جاليتها، عند مكب النفايات. أشاعت النشوة في قلوبهم، فالتهموها بنظراتهم النهمة، وأطلقوا خيالاتهم الحبيسة، وأصبحت سوريانا موضع رهان العشاق، من طباخين وعمال ومزارعين.

سمعت أم علي، من طرف خفي عن وجود علاقة بين خادمتها وعبدالقيوم. بعد تهديد ووعيد، كُشف السر وأزيح الغطاء، وأخذت سوريانا تشرح بذراعيها، ورأسها، وعينيها اللتين غرقتا في بحيرتين من دموع لؤلؤية، حيثيات الواقعة وكيف نجح عبدالقيوم في احتلال جسدها. ذاع الخبر، وتردد صداه في الحارة بسرعة البرق، وأصبح المحتوى الرئيسي لأحاديث الناس. انتقل إلى مسامعهم، بيوتهم، مجالسهم، دكاكينهم، واحتشد الجيران وجيران الجيران. توافدوا من

الشوارع والحواري، حتى امتلأ بهم فناء بيت الحاج علوان. أخذ الكل يتشاجر مع الكل، وانقسموا قسمين! قسم صغير من أنصار مدرسة رفع الأمر إلى الشرطة، وقسم أكبر من ذوي النيات الطيبة ومؤيدي الستر على الموضوع.

أخذ الصخب في الفناء ينمو ويزدهر، وبدأت مساع حميدة. وحتى تُخرس أم علي ألسنة الشامتين، أوعزت إلى مطوع الحارة أن يُتعب نفسه ويجتهد في إيجاد حل، فتحول الطلب بالنسبة إلى العالم الجليل، إلى لوغاريتم شرعي! أمضى ساعات في غرفته يقرأ وينّقب ويبحث، اتخذ من بعدها قراراً بضرورة زواج عبد القيوم من سوريانا .

في المساء تم الإمساك بعبد القيوم مشيعاً باللعنات. فاعترف بارتكاب خطيئته. ولكي يقطعوا عليه دروب الهرب، جعلوه يقسم يميناً معتادةً في مثل هذه المناسبات. لكن علي علوان لم يعجبه الموضوع، فذات خميس، هاجت في نفسه بقية من كبرياء، إذ كيف سمح عبد القيوم لنفسه بهتك عرض خادمتهم! قرر الذهاب في موكب من الأنصار والأتباع، إلى عبد القيوم في دكانه، حيث تشابك معه بالأيدي والشعر والأسنان. إلا أن عبد القيوم غافله بصفعة دوت معها صرخة وجع أطلقها علي فجعلت منه عبرة لعيال الفريج. لم تنفعه قوات الردع التي أحضرها معه للمساندة، فقد تناثرت وتفرقت كعصافير مذعورة.

أما النكبة الثانية فقد حلت حين أخذ الحاج علوان يستعرض، ذات مساء، وهو يرشف من فنجان قهوة بيد مرتعشة، ما تجود به ذاكرته

من أحاجٍ وحكم وأمثال وأبيات قصيد. كان هدفه من هذا كله، تسريب رسالة خفية إلى أسرته، أن ذاكرته سليمة لم تتآكل بفعل وقوفه على أعتاب شيخوخته. بدت الحياة فجأة عزيزةً جداً على الحاج، تحركت فحولته واستبد به شوق غريب وحنين جارف إلى النساء. غافلهم في ليلة ساكنة زانها بدر شعبان، وسافر إلى بلاد تركب الأفيال، ثم عاد ومعه عروس سنها مقاربه لسن بناته.

ضربت أم علي صدرها وشهقت في ارتياع وراحت تتفحص ضرتها، بعينيها الكليلتين، لاعنة النقود التي جعلت من الشايب يتزوج بفتاة بعمر بناته. عاشت أياماً مريرة، خاصةً بعد أن اتضح لها أن تطليق الزوجة الجديدة، أمل في خانة المستحيل. فُتح بينها وبين الحاج علوان، نافذة عداء لن يسدها شيء سوى الموت. حاولت أم علي استمالة مطوع الحارة كي يدبر لها فتوى من فتاويه المعطوبة. غير أنه اعتذر منها، متعللاً بخوفه من الحاج علوان.

ذات يوم مشهود، جلس الحاج علوان طابعاً ابتسامة على فمه بجانب عروسه في حوش البيت. أضاف إلى لباسه محزماً، وخنجراً، وشالاً كشميرياً، بينما لبست العروس لباسها البنجابي الحريري، وتضمخت بالعطور. وفي سيل لا ينقطع من القهوة والشاي، التأم جمع الأصحاب ولفيف الجيران، ومن جاء ليبارك زواج المال من الجمال.

سما الحاج علوان بمشاعره بعد الزواج، ودبت فيه روح التسامح، فما عاد يضرب علي. عرف الحاج الحب بين يدي الصبية، خلاسية

البشرة، شهية المذاق، التي منحته السعادة عدة أشهر. وحين شرب من عشقها حتى ارتوى ولم يعد بحاجة إلى مزيد، قرر تسريحها وعاد بعدها ليصطدم بالواقع. بهتت ملامحه وتكوّم في حجرته، مثل جذع شجرة بالٍ نخرته الشمس. أخذ جسمه يهتز ويرتعش في بكاء مكتوم، بعد اكتشافه أن زواجه كان مجرد صحوة الموت التي تسبق الوفاة...

سمع علي وقع أقـدام الحارس الذي لا يكف عن التجوال في دهاليز السجن المعتمة، قاطعاً الممر بين الزنازين، مجاهداً في المحافظة على السيجارة مشتعلة بين فمه. يقترب من زنزانته ويلقي بتفحص، نظرة على حبسه الانفرادي. سمع همهمات، فتسمّر في ذعر، مسلطاً عينيه على الجسد الممدد، ثم انتفض مبتعداً باتجاه مكاتب الإدارة، ناقلاً الخبر إلى أذن النقيب الذي أمر بإحضار الطبيب فوراً.

دخل الطبيب زنزانة علي، لكزه في كتفه ليوقظه، صاح فيه مرات ومرات، حتى بُعث من إغماءته. انحنى يسأله وهو منهمك في فحصه حتى جاء تشخيصه: إنه مصاب بالجدري! انصرف الطبيب فجأة، كما حضر فجأة.

قبيل منتصف الليل، انتشرت البثور على وجه علي وجسده. أكل الجدري جلده، سالباً النوم من عينيه. قضى ليلة طويلة، مع وطأة الحمى القاسية التي ألمت به. تذكّر خادمة أم حامد، التي عادت من بلدها الملوث بجميع أصناف الجراثيم، فنقلت الجدري إلى الحارة. يومها، أصاب الوباء أغلب الأهالي والصبية، متفادياً بيت الحاج علوان. انتقل

أيضاً إلى مطوع الحارة، وهو الغريب الذي احتل ميكروفون الجامع ذات مساء، مصراً على أن يؤذن للصلاة، فخلع عليه الأهالي لقب مطوع. حينها، احتجب بعدها في بيته مدة شهرين، مستمعاً إلى أشرطة الكاسيت، قارئاً للمجلدات، مداوماً على حفظ الأوراد. أرخى لحيته، ونقب زوجته، ولبس ثياباً بيضاء فضفاضة، أقصر من المألوف، يطل من أسفلها سروال طويل. لف رأسه بعمامة، وحرص على صيام الأيام الستة البيض، والاثنين والخميس من كل اسبوع.

كان للغريب من ثم ما تمنى، فقد ارتفع سهمه بعد أن اعتلى المنبر. خاطب الأهالي بهدوء، ملوحاً لهم بمسبحة حباتها من يسر، وصار بمثابة المعلم، والرائد، والإمام، والفقيه، والمؤذن، ومعلم الصبيان. عاش المطوع في حدود لا يتعداها، ودار في دائرة لا يخرج منها. ومع تقادم الوقت، ادعى القدرة على علاج الأمراض، وتزويج العانس، وتأويل الرؤيا، واخراج الجن، ما جعله يتمتع بشعبية جارفة في الحارة. ولأن الأهالي، بسطاء، مسالمون، يصدقون بسهولة ويتفاعلون بسهولة ويتخذون قراراتهم أيضاً بسهولة، كان تأثيره عليهم بلا حدود. أخذوا يرهبونه، وراحوا يفترضون ويتقولون أنه من الأولياء الصالحين. تباركوا به، مسوا ثيابه، قبلوا يده، طلبوا أن يبارك بيوتهم، مزارعهم، ثمارهم، ينابيعهم. ركب الغرور المطوع، فأصبح يفتي في كل شيء، من الدين، إلى السياسة، إلى الفن، إلى الأدب، وبحكم التطور الطبيعي للأمور، ظهرت له آراء، تحرّم مشاهدة التلفزيون، وركوب السيكل، والتحدث بالتلفون!

★

كان جو السجن خانقاً، مفعماً برائحة الوباء. حصد الجدري على مدى يومين، أغلب المساجين والحراس. في صباح اليوم السادس، اصطف الحراس على يمين البوابة الرئيسية وشمالها في حركة نشطة، يتابعون دخول أعداد كثيرة من سيارات الإسعاف، لنقل المصابين إلى المستشفى العسكري العام. منعت إدارة السجن نقل المصابين من نزلاء الانفرادي، منعت أيضاً خروج المساجين إلى الباحة الرئيسية، حتى لا يتعرض أحد لتيار هواء مصحوباً بفيروس شارد.

أفاق علي علوان متحسساً أضلاعه المهشمة بأخمص البنادق، شاعراً بأوجاع العالم كله في جسده. ابتلع مراراته وهو يتلمس أرضية حبسه بقدميه العاريتين. استجمع شتات نفسه محاولاً الاستناد إلى الجدار. غامت الدنيا في عينيه، بدأت الزنزانة بالدوران، فلم ير حوله غير السواد. خذله جسده، وخارت قواه، وانهار على جنبه، غائباً عن كل ما حوله.

استيقظ وقد ارتخى ذقنه، وانحدر اللعاب من زاوية فمه مختلطاً بالتراب. اعتدل بصعوبة، مخرجاً لسانه من فمه مرطباً شفتيه. تطلع

حوله وسط الظلام الذي بدا له أقل كثافة من ذي قبل. فرّت منه نظره إلى السقف فتأرجحت صور أمدته بطاقة كافية لاحتمال العتمة.

نهاية الموسم الدراسي وحلول العطلة الصيفية، وقوفه ذات عصرية مستنداً إلى الحائط، وبريق الفضول يندفع من عينيه، محملقاً في الوافد الجديد وهو يهرول على رصيف الشارع الذي يفصل حارتهم، عن الحي المستحدث من جهة الشمال والمسمى بحارة الإنجليز.

دهم خياله وجه ديفيد. بشره ناصعة بيضاء، شعر أشقر ينسدل على جبهته العريضة، عينان زرقاوان كعيني سمكة ميته، وعنق تتدلى منه سلسلة ذهبية تتوسطها جمجمة. كان ديفيد عملاقاً مهيباً في الأربعينيات من عمره، يهرول بطريقة فاضحة، مرتدياً – تي شيرت– أبيض غاية في الضيق، وسروالاً أسود يظهر فلقتي مؤخرة أثارت الضحك في نفسه الغضة. ظل علي يراقبه بشغف، إلى أن مرّ ديفيد بجانبه لاهثاً بسعادة، غامزاً بعينه وصائحاً : هالوو. وضع علي يده فوق رأسه في حيرة، ثم بعد تردد لم يدم طويلاً، أخذ يخُب خلفه وقلبه ينبض في عنف يكاد يسمع طنينه، حتى توارى العملاق داخل منزله.

بقي علي متسمراً في مكانه إلى ما بعد غروب الشمس. ثم راح يهيم بين زوايا وأطراف البيوت باحثاً عن أصدقائه. كانوا يستهدفون بحجارتهم القطط والكلاب بالقرب من المقبرة. قصّ عليهم من أنباء العملاق الغريب، أثارت كلماته فضولهم. في اليوم التالي، ظلوا يرقبون ديفيد على الرصيف، التراب يعلو وجوههم ويغطي ملابسهم

الرثة، والوحل يمتزج مع أقدامهم العارية. فُتنوا بمشاهدة العملاق وهو يحييهم، تبعوه حتى انسل إلى منزله.

أصابهم الذهول، العملاق أشقر، زوجته أيضاً شقراء، ابنته، قطته! استمر الحديث عن العملاق عدة شهور قادمة، أنعم عليه شواب الحارة لقب – ولد الحمرا –، أخذ صدى اللقب يخترق أغلب أحياء المدينة، وكان سبباً في انفجار شهرته الأسطورية.

ذات جمعة، اعتلى مطوع الحارة صهوة منبره. قاصداً، بصوت لم يحرص على خفضه، ولهجة غير ودودة، ندد بالغريب الكافر، مستنداً إلى تلفيقات اجتهادية، ومعلومات مغلوطة، وأقاصيص غير موثقة، غذاها إيمان تام بين الأهالي أن كل أشقر، كافر. تكهرب الجو العام في الحارة، تسابقت الألسن إلى نعته بأحط الكلمات، وصل التنديد إلى مسامع مراكز القوى في كل بيت، تبعته أوامر صارمة بعدم الاقتراب من ولد الحمرا .

على دبيب نمل اجتاح ساقيه، وأسراب حشرات تمتص دمه، تمشي على لحمه، أفاق علي علوان من حلم يقظته، نفض أرتال المخلوقات المزعجة متأففاً، متأملاً في السواد الموحش. شعر بالزنزانة تضيق تكاد تطبق عليه، تهصره، تكتم أنفاسه. يمرّ يومه السادس في غياهب السجن، مع انتظار الرد من القيادة، بطيئاً، مثقلاً بتعب الزنزانة وحرقة العزل، وهرش الجدري الذي أعاده ثانية إلى ذكرى انتشاره في الحارة. كيف كان الترياق يومها الخلود إلى النوم، والمسح بمرهم

أبيض اللون يُصب من قارورة معدنية، يفرك به جسم المصاب فيظهر كأنه أحد سكان استراليا الأصليين.

أخذ الجوع يهرس أمعاء علي الموبوءة، لو يمكنه الحصول على وجبة تمكنه من شحن طاقته، تسكت عواء معدته المحتجة. عادت إليه الحمى، فأعاده هذيانه إلى سنوات مراهقة سكنها هوس ورغبة لا ينطفئان لملاقاة ديفيد، فسعى لتحقيق حلمه.

مع احتدام هجير الظهيرة، طلب علي من حامد وخليل، وجسار الوحيد من بينهم الذي يتقن الإنجليزية، الذهاب إلى مستعمرة الإنجليز. قرعوا الباب من دون موعد، أطل ديفيد مبتسماً مستفسراً! بلكنه ركيكة من جسار، مستعيناً بإشارات اليدين، تعبيرات الوجه والحاجبين، الأصابع والعينين، أدرك ديفيد مقصدهم وأنهم جاؤوا لتحيته! متفرساً فيهم، أوسع فتحة الباب غير متبرم، داعياً إياهم للدخول.

اجتازوا ممراً ضيقاً على يمينه مطبخ تجاوره دورة مياه. ولجوا صالة مستطيلة الشكل، بها ذوق ورفاهية لا تخطئهما العين، جلسوا مبهوتين على كنبة خضراء مخططة، بمحاذاتها كراسي خيزران، تتوسطها طاولة ملقى عليها بتلات ورود، حقيبة يد نسائية، وجهاز استيريو يردد في فضاء الصالة أصداء هامسة، كلاسيكيات موسيقى عالمية. كان نمطاً جديداً عليهم لم يعتدوه من قبل، عناية، ونظام، ونظافة.

أخذوا يجولون بأبصارهم على تفاصيل المكان، جدران بيضاء

عُلقت عليها ملصقات عريضة ملونة، منتزعة من شتات مجلات. فرق موسيقية، ممثلون، ملاكمون، وصور للوحات انطباعية مشهورة. في صدر الصالة وبداخل إطار مذهب مبالغ في زخرفته، خنجر فضي ذو محزم عريض، تلتمع فيه خيوط فضية. يتصدر الجدار المقابل تلفزيون يتوسط مكتبة تكدست فيها كتب، تحف، مزهرية، أوان خزفية صغيرة، وإناء زجاجي عميق به أسماك زينة.

أزاح ديفيد ستارة بيضاء منقوشة بزخارف ذهبية فاخرة حتى منتصفها. تمكن ضوء الشمس من التسلل إلى نباتات وضعت في أصيص كبير من الفخار. وبالرغم من ملامحه المخيفة، وبنيانه الهائل، وعضلاته الخرافية، إلا أن الطيبة بدت على ديفيد مع دخول طفلته الصغيرة الشقراء، بفستانها الأزرق فوق جوارب بيضاء. أخذ في مداعبتها بمرح ضاحكاً بملء صحته.

ظل الصمت ناطقاً بينهم وبين ديفيد، حتى دخول امرأة جميلة التكوين، ترفل في ثوب أخضر مفتوح الصدر. جسد يفور بالفتنة، صدر بارز، خصر ممشوق، وجه جميل مليء بالنمش تزينه أقراط ذهبية، وشعر أشقر ناعم يلامس كتفيها المنمشين. تقدّمت بخطوات متكسرة، يسبقها تدفق موجات عطرها الخفيف، باتجاه الكنبة حيث يجلس الأصدقاء. مدت يدها للمصافحة، عاقدة حاجبيها في تساؤل عن نياتهم الحقيقية من الزيارة.

قام ديفيد بتعريفهم إلى زوجته جولي، فوقفوا لمصافحتها على

استحياء. ظل جسار رغم يفاعته، يتابع بنظرات متأججة مؤخرتها، حتى بلغت مقعدها. غطت جولي سحنتها مسحة صرامة لتداري ارتباكها، ساد حينها صمت وترقب.

تمتم جسار من أنهم حضروا للتعارف، ثم التزموا الصمت، لينصتوا إلى ديفيد وهو يرطن كأنه يحدث نفسه. قام بتعريفهم الى ابنته الصغيرة -ماري آن-، وظل يتدفق في الحديث، مقحماً ما تيسر من الكلمات والتراكيب العربية، أخبرهم عن نشأته في ويلز، عن أبيه الحلاق المتواضع الضليع في رياضة الملاكمة، المتمرّس فيها حد الإتقان، وكيف أورثها إلى أبنائه، متمنياً منهم تحقيق ما سبق أن أخفق فيه من بطولات.

قامت جولي إلى المطبخ، عادت ومعها عدة أطباق بها شطائر وكؤوس من العصير، أكلوا وشربوا في نهم شديد، خاصة جسار الذي يعشق الطعام ويقدّسه. أضاف جمال جولي مسحه سينمائية إلى هيئتها، وهي تحتضن طفلتها وتستوي على عرشها، مستمعة بتلذّذ إلى حديث زوجها الذي أبدى شغفاً شديداً بشخصية الملاكم- كلاي-، التي كانت آنذاك في أوج سطوعها الإعلامي.

جف حلق ديفيد من كثرة الكلام، استعاض عن ريقه برشفة ماء. لم يكن هناك قاموس مشترك للحوار. متلعثماً، حاول جسار مجاراته بلغته الهزيلة، التي عجزت عن خلق التواصل المنشود، فلم يسعفه ما قرأه أو حفظه من محتويات كتب الدراسة أو المجلدات. مسترسلاً،

تحدث ديفيد عن مهنته كمهندس للصيانة، وعن حلم الثراء الذي يراوده والبحث عن مستقبل أفضل. وكيف نصحه أصدقاؤه من أجاويد الإنجليز بالهجرة إلى أي بلد من بلدان الزيت. استأذن ديفيد للدخول إلى دورة المياه، دلف بعدها الى المطبخ، وعاد وهو يرشف الشاي من كوب معدني بمزاج واسترخاء، مرتمياً على كرسي خيزران اعتاد أن يحتله كل يوم.

انهار كل توجس ورهبة عند علي علوان، ليحل لديه إحساس بالأمان والسكينة والاطمئنان. قفز بخفة القرود، وهو يقطر سعادة باتجاه ديفيد، باغته متلمساً عضلاته بإعجاب، طالباً من جسار ترجمة، أنه يرغب مجاراته في البنيان. بدا الطلب بالنسبة إلى ديفيد أمراً مثيراً للفضول.

بنشاط غامر، نهض ديفيد. اتجه نحو المكتبة، مقلباً بين الكتب والأوراق، استلّ من بينها دفتر الأرقام، تصفحه بينما سبابته تحوم باحثةً عن رقم معين، ثم اتجه إلى الهاتف ليدير قرصه عدة مرات. أصاخ علي السمع، في حين لم يصدق جسار ما سمعته أذناه من بين طلاسم الحوار. لقد أخذ ديفيد موعداً لاصطحابهم في اليوم التالي إلى النادي. ارتج كيان علي، وأحس بقشعريرة الفرح. غادروا المكان بينما جسار يتشمّم ما احتفظ به كفه من عبق ورائحة عطر جولي الخفيف.

في الغد، وقف علي أمام المرآة يهندم نفسه في حجرته، يصفف شعره القصير الذي انبعثت منه رائحة صابون -لايف بوي- الأحمر

الحارق للعينين. اعتصم عمامته، نظر إلى قيافته بإمعان فبدت عليه السعادة. دلف إلى المطبخ لوداع أمه، طالعته بوجهها الأعجف الراضي دوماً بقضاء الله وقدره. شعرها الأبيض المخضب بالحناء، جسدها الضامر الذي زادته هموم سنوات عمرها الخمسين جفافاً وكآبة. كانت جالسة تنقّي الحصى من القمح مع ابنتيها.

لاطفها، ارتمى يلثم بحنان يدها، ممرغاً شفتيه فوق عروقها الناتئة المعطرة بروح البداوة الهادئة. رفعت أكفها إلى السماء، تدعو له بورع المتقين بالتوفيق. وهي تمسح، رغم صلابتها، عبرات تراكمت في زوايا عينيها. خرج علي ملوحاً لأختيه بعلامة النصر.

وصلت شلة الأصدقاء إلى بيت ديفيد. فلاح من الأخير شبح ابتسامة. استقلوا سيارته الفولكس واجن الخنفساء الزرقاء اللون، ووصلوا بعد عشر دقائق إلى النادي الخاص بالجالية الإنجليزية.

سور مرتفع يلف النادي المقسّم إلى أربعة أقسام في كل منها صالة، واحده للبولينج، وأخرى للكاراتيه، وثالثة للملاكمة، ملحق بها حجرة لكمال الأجسام، وصالة صغيرة للباليه. يضم النادي أيضاً مسبحاً، وميداناً للرماية، وملعباً كبيراً للرجبي، وباراً صغيراً يعتبر متنفساً يجد فيه الكثير من المسنين وضحايا الوحدة، العزاء والسلوى.

مأخوذين بنشوة الأرجاء، تبع الأصدقاء الأربعة ديفيد وهو يقودهم عبر ممرات ضيقة طويلة. انحدروا في سلالم وصعدوا اخرى، عرجوا على دهاليز، حتى وصلوا إلى صالة كبيرة تتوسطها حلبة ملاكمة. أمرهم

ديفيد بالانتظار، ثم تقدم إلى شخص مجهول يضع ساقاً فوق أخرى، متابعاً بشغف ملاكمين يتعاركان على الحلبة. يقفز أحدهما كالفراشة ويخطو كالفهد، بينما بدا الآخر هزيلاً، ضامراً، لم يلبث أن تلقى لكمة شهق لها شهقة، خرّ بعدها مغشياً عليه، مغرغراً في حشرجة.

كان الشخص المجهول يتفجر بالصحة والقوة، تشع منه هيبة فطرية تفرض على الجميع احترامه. النوع الذي يستحق عن جدارة لقب جنتلمان، بكل ما يحمله اللقب من ظلال وأبعاد. وجه مشدود يبرز سمت الخشونة والرجولة، تزينه ابتسامه حانية، سوالف عريضة ممتدة إلى منتصف خديه المنتفخين، كتفان عريضتان، تسندان رقبة كجذع شجرة تتدلى منها سلسلة ذهبية يتوسطها صليب. كان الرجل يلبس تي شيرت أسود مكتوب عليها بحروف إنجليزية بيضاء جملة قصيرة مختصرة، يمكن ترجمتها إلى – أنا أحب مانشستر –.

اعتدل الرجل في جلسته، بينما كان ديفيد يحادثه، منهمكاً في تسليك غليونه، وحشر الدخان في فوهته وإشعاله في زهو. تفرّس الغريب في وجه علي علوان. نظراته الخبيرة تحاول قياس الشريحة الاجتماعية التي ينتمي إليها من خلال ما يرتديه. أشار بغليونه مبتسماً إلى الفتيان ليقتربوا. أخذ يسأل وجسار يترجم، أظهرت معلومات علي علوان في مجال الملاكمة أنها مليئة بثغرات واسعة سعة المحيط الأطلسي. وجم الرجل فترة يعض بأسنانه قصبة غليونه، في حركة رتيبة مفكراً بعمق، قبل أن ينطق بصوت عفي أجش يقرع الأذنين : حسناً، ستبدأ من الغد.

اتضح أن الرجل الغريب يدعى الكوتش في محيط مهنته بالكوتش. كان لقباً أثيراً في أصول المهنة يعرفها المتدرب جيداً. كان الكوتش مرهوب الجانب، متخصصاً في نفخ عضلات الجنس البشري. كلامه لا يُرد أو يراجع، وهي بديهة مهمة للالتزام بالتوجيهات، لتحقيق شعاره المعلن الذي يرفعه دائماً... الانضباط ثم التدريب.

تكررت رحلات الأصدقاء إلى النادي، تقودهم أقدام تورّمت من كثرة الهروب من سائقي سيارات الأجرة التي يأمرونها بالتوقف، على مسافة قريبة من النادي، ثم يطلقون سيقانهم للريح متسلقين السور المحيط بالنادي، بينما الحارس داخل كهفه الخشبي يغط في عميق نومه.

مرت الأيام والأسابيع متتالية، نشأ الود بين الكوتش وعلي علوان كأحسن ما يكون. رسم الكوتش العتيق في مهنته، خارطة مستقبل علي، بدخان غليونه الضخم. عكف على تدريبه تدريباً خاصاً، حتى برز نتوء عضلات رسمت تضاريسها على جسده الفتي. أعطته البدايات ثقة كبيرة في نفسه، رغماً عن أنها انحصرت في ضرب غيظ، عدواني، عشوائي.

بعد معاناة مرهقة، تمكن علي من تمييز أنواع اللكمات، يمين خطافية، يمين مستقيمة، ستوماك، القبضة العارية. تفنن أيضاً في اللكمات التي تدفع الأدرنالين في الدم، وتجعل العروق تنتفض بالكبرياء، كيف يتحاشاها، يتقيها، يتجنبها. أصبح النادي المكان

الأثير، يقضي فيه وقتاً أطول مما يقضيه في بيته. حياة حافلة، تمارين وأنشطة، ومنافسات لا تنتهي تشعره بمذاق مختلف. حياة مفتوحة على أقصاها، كل الأمور تبدو جامحة، بشر كثر، سلوكهم عجيب، يبتسمون مترافقين، أو فرادى، يفرحون، يبتسمون، يندهشون، يشربون ثم يرقصون.

كان المستوى الفندقي المتميز للخدمة، والتصميم السياحي للنادي، سبباً في فداحة الأسعار. لم تكن هذه النقطة في صالح علي علوان، مع هذا كان النادي فرصة سانحة لممارسة ما كان يراه في أحلامه، على أرض الواقع. انتفضت مراهقته، نظر حوله بلهفة المكتشف للجديد، انبهر بما فُتح أمام عينيه من نوافذ، وعوالم لم يكن يُعلم لها وجود، خاصة عالم النساء، المحفوف بالبهجة، والخيبة، واللذة، والمرارة.

قُيض للنادي أن يتحول، بجدارة، إلى واحد من أشهر معاقل الأناقة والجمال. فتيات جميلات كالفراشات، ابتسامات أنثوية لطيفة فياضة، سيقان عارية، أرداف رجراجة، نهود نافرة، أكف بيضاء ذات أنامل ناعمة، ثياب بسيطة تكشف عن مفاتن الجسد، بغير تحفظ، أو أدنى شعور بمراقبة أو تطفل....

جفل علي علوان عند سماعه وسط الظلام، حفيفاً يقترب من زنزانته. لجم ركل باب الزنزانة المفاجئ، بقدم الحارس، جيشان عواطفه. وضع الحارس صينية طعام على حافة الأرضية المتربة.

مرتدياً كمامة اتقاء للمرض، ثم غادر راجاً باب الحبس برعونة وقسوة. زحف علي إلى الصينية، متحاملاً على وهنه وإعيائه، وقد جعله نداء الجوع، يزدرد الطعام كألذ ما يكون.

★

قبل أن تنخفض الشمس بمقدار رمح عن الأرض، أنهى علي علوان وجبته، مزيحاً الصينية بقدمه. انكمش على نفسه، حاضناً ركبتيه بذراعيه المحمومتين، ملقياً رأسه بينهما. ظل يجاهد للاستسلام لغفوة خفيفة، إلا أن الهرش بدأ يسلخ جلده.

استلقى على ظهره، مغمض العينين. كان مساءً ساكناً إلا من صوت صرصار الليل. وضعه السكون في حالة بشعة، حيث الأيام كلها تتناسل متشابهة، وحيث لم يفارقه الأرق، ليلة واحدة من لياليه الست، بانتظار الإفراج عنه. تفصد عرقاً، فاضت رائحة من جسده ومن ثنايا قدميه، تهاجم منخاره. كانت عظامه متوجعة، ملابسه عفنة، مثانته ممتلئة. وفي ما يشبه هذيان النائم، تسرّبت إلى أذنيه من فُرجة الباب الحديدي، همهمات غير محددة. صوت خطوات تقترب ببطء، كانت قد توقفت عند كل زنزانة. انتصبت شعيرات جلده وارتجفت أذناه بغتة كما ترتجف أذنا الفرس، حين سمع وكيل السجن يطلب من السجّان فتح باب زنزانته.

أجفلته حركة المفتاح وهو يدار في جوف القفل، ثم صرير الباب.

رأى شبح الوكيل يتقدم صوبه، بعد أن أغلق السجان عليهما الباب. استدار علي بوهن ليقابل بكامل جسده الوكيل الذي دفعه بقدمه، ثم باغته بضربة كوع قوية، على منتصف سلسلة ظهره، أطلق معها علي آهة مكتومة، وقد شعر بانهيار جسده الذي حماه طيلة ثمانية وعشرين عاماً، عبثاً. أثار استسلام علي للضربة حنين الوكيل إلى سطوته، وأوصل شهية الانتقام عنده حدّ الذروة، فضغط بقدمه على صدر علي، ثم سأل وعروق رقبته النافرة تنبض على نحو مخيف: كيف تجرأت وضربتني يا كلب! وتابع يضربه ويركله إلى أن صاح به كالممسوس: من هو سيدك؟ أجب أيها الحقير.

كأن عفريتاً اجتاح كيانه، صرخ علي به: سيدي، أنت ربما لم تكن يوماً سيداً، حتى على نفسك! فعاجله الوكيل بركلة بحذائه شديد الصلابة، كادت تحطم فكه الأيمن، وأكرهته على الالتواء. أحس وكأن قلبه قد انحشر في حلقه، بعد أن ارتدت صرخة مدوية أراد إطلاقها، من حنجرته وتفجرت في دواخله.

اهتز جسد علي علوان، فأفاق من غفوته، مكوراً قبضتيه، فزعاً ينضح بالعرق وببول تفلت منه رغم إرادته. لقد ملأ الكابوس عينيه وتسلل الى جوفه. حاول التقاط أنفاسه الهاربة. شعر بانقباض في معدته، وجفاف في فمه. شعر بظمأ فظيع كأنه لم يشرب منذ دهر. جاهد لاستدرار لعابه، بحث عن ريقه، فلم يجده.

أكمل علي علوان ليلته يقظاً، مرهفاً السمع إلى طنين البعوض في

عتمته. تضخم داخله شعور الخوف، وترددت أنّات الوجع العميق في نفسه. شرد بذهنه إلى وقت بعيد.

كان طقساً ربيعياً حين عاد مع صديقه حامد من الجامع، بعد أدائهما فرض الجمعة. هرولت إليهما بوبي مرحبة، تتشمّم كف علي المداعبة وتلعقها، بعد أن كانت تنتقل وسط الدار، متثائبة من فرط الملل. ربت على ظهرها، فجلست إلى جواره. مدّ يده إليها بقطعة كبيرة من رغيف ساخن. تعالت أصوات كلاب في الشارع، فبادلتها النباح، وهي تتقافز في الهواء، منتصبة الذيل والأذنين.

تناول وحامد غداءً خفيفاً، ثم أخذا يفكران في خطوتهما القادمة. لم تكن الخيارات كثيرة، لذا قررا الخروج مع بوبي في نزهة. ربط حامد السلسلة حول رقبتها، فانسلّت إلى الشارع بسعادة وهي تهز ذيلها بنشاط.

سارا على رصيف الشارع الذي يقطع الحي قسمين، ثم راحا يجوبان الطرقات، من حارة إلى أخرى، حتى وصلا اطراف المدينة حيث بساتين النخيل وحيث يحذر الجميع التواجد، ففيه يجتمع أبناء الليل والمعدمون، أرباب السوابق والمعربدون، السكارى وشمامو الغراء.

فجأة، استبدّ بعلي علوان خوف غريزي، وشعر بخطر خفي يحدق بهما. جال ببصره في المكان، فوجدها حارة قديمة ذات طراز عربي، تتداخل الدُور فيها بطريقة حميمة، وتتلاحم جدرانها. كانت الحياة

ساكنة، والطيور تحوم، والأصوات تأتي ثم تضمحل. ثم ظهر شابان، كان أحدهما يحمل آثار شارب حلق تواً، وأما الآخر، فكان صعلوكاً سيئ السمعة على تماس دائم مع حامد، مدفوعاً بسعار مكبوت. كان قد حاول مراراً التحرش به في المدرسة، مساوماً إياه على نفسه.

بدا الشّابان متحفزين للعراك، عدائيين. اشتمّت بوبي رائحة نوايا الشجار، فكشرت عن أنيابها وزأرت. تقدم الصعلوك باتجاه حامد، وقد ركبته نعرة العزة بالإثم، صارخاً متنمراً: أين أمك العاهرة الجميلة، وأختك الأجمل! توتر حامد، لكنه لبد في مكانه. نبحت بوبي كأنها تنذر الصعلوك، تحذره، واستمرت تزأر بشدة، مركزة نظرها في عينيه.

ضغط الصعلوك بقبضته على رقبه حامد، متسائلاً إن كانت أمه تتقن اللعب في الفراش. شعر حامد بقلبه يهدر بنبض متسارع، كأن العبارة مسّت شيئاً خبيئاً في أعماقه، فأفلت ناظراً حوله مستجدياً الخلاص، ثم أخذ يسب أمهاتهما وأمهات آبائهما، وانحنى يمسك حفنة تراب، ذراها في وجه المسطول وهو يصيح: أنا ابن الأكرمين ايها اللعين.

أمسكه الصعلوك من قميصه، رافعاً إياه الى الاعلى، هابطاً به الأرض. شُجت ناصيته من هول السقطة، ففقد الأنفاس والإحساس لثوان. واصلت بوبي نباحاً شرساً، عالياً، واندفعت لمهاجمة الصعلوك الذي ركلها قبل أن تصل إليه، فوقعت وتدحرجت، ثم ابتعدت صارخة، عاوية. اشعل الموقف غضب علي علوان، تجهمت ملامحه، تلاحقت أنفاسه، فتقدم وركل المتسلط، بين فخذيه بفجاجه.

انقض عليه الشابان في شجار شرس، علت معه صرخاتهما، حاول علي الإفلات منهما، متحيناً الفرصة لنطحهما، إلا أنهما قمعاه بقسوة، فاختل توازنه، ترنح وهوى أرضاً، فسارع أحدهما وارتمى على صدره، ضاغطا بركبتيه على ذراعيه. رضخ علي سريعاً، ولم تجد محاولاته الإفلات نفعاً.

تناول الصعلوك سكيناً من جيبه، وجز به خد علي الذي صرخ بقوة حتى بحّ صوته. تخبط محاولاً الفرار، لكن لم يسعفه سوى جذع شجرة غليظ، التقطه ونهض مطوّحاً به. سمع الجلبة أشخاص تقاطروا إلى مسرح المعركة لتفرقة المتخاصمين.

تراجع الشابان وعلامات النصر والانتشاء تقطر من وجهيهما، وقال الصعلوك بأسنانه النخرة الصفراء، وهو يضغط على كل حرف من حروف كلماته: هذا الجرح للذكرى. لا تعودا إلى هنا مرة أخرى.

اسرع الصديقان مبتعدين، لاهثين، معفرين بالتراب، تجري خلفهما بوبي. أحس علي أن ثمة ما تكسر في داخله، وأنه لم يعد كما كان. كان شعور العار يغلي في صدره، ممزوجاً بخوفه أن تهتز صورته أمام فتية الحارة. ظلا يسيران مهرولين حتى صارا بمحاذاة مدرستهما العتيقة التي طردا منها، فأبطآ مشيتهما يلتقطان أنفاسهما. بدا المبنى الإسمنتي لعلي مشوّهاً، ساحته مطمورة بالرمال، جدرانه مشقّقة ومنتفخة من شدة الرطوبة، وبيوت العناكب تتدلى من أسقف الصفيح التي تراكمت فوقها مواسير صدئة وأخشاب.

هنا، قضى علي، مع حامد وخليل، سنوات غاية في التعاسة، كانت حصيلتهم من الفهم خلالها متواضعة. بدت لهم الدروس مملة متخلفة، لا تغذي طموحهم بشيء، فنفروا منها، من مدرسيها، ومن التلاميذ المستسلمين لبلادة راسخة. لقد خرجت الدراسة من دائرة اهتمام علي علوان إلى غير رجعه، يوم اتهمه معلم التربية الإسلامية بسرقة الطباشير، وعيرّه أنه من جيل فاشل، مهزوم، وسخ. لم يكن علي يملك حيزاً للمناورة، أو الهرب، أو الاسترحام، ففتح راحتيه مستسلماً لتلقي ضربات عشر من هراوة غليظة، ذات أصل زراعي، جعلت يديه بحجم رأسه.

ثم جعل الأصدقاء الثلاثة يتلكؤون في الحضور الى المدرسة. اختلقوا شتى الأعـذار، تمارضوا، تغيبوا، هربوا من فوق السور، عاقروا التدخين، طاردوا الجرابيع، ونصبوا الفخاخ لاصطياد الطيور. كان تراخيهم ولا مبالاتهم، مثار تخمينات الناظر الذي وقف لهم بالمرصاد. في منتصف السنة الدراسية، أوصى بزحزحتهم عن مقاعد الدراسة نهائياً.

تركت فيهم المدرسة جراحاً كبيرة، ولأهاليهم خيبة أمل أكبر. ولأن المغامرة كانت ملعبهم وموطنهم، انتهزوا الفرصة التي جاءت اليهم على طبق من ذهب، وعادوا إلى الحواري، إلى المساءات، ليغرقوا في أجواء لعب كرة القدم، ويستهلكوا أيامهم متجولين على غير هدى، مخترقين زحام المدينة وصخبها بجولات هائمة يومية.

دخلوا في زمرة المتسكعين، ذابوا في الجموع المكتظة بين دكاكين الصاغة، وورش النجارة، ودور السينما، وغطتهم سحب دخان تتصاعد من مداخن المطاعم الشعبية، وروائح أطعمة مختلفة. اختلطوا بشخوص السوق المثيرة، بالشحاذين المتسكعين أمام مواقف الحافلات، وآخرين يصيدون المحسنين أمام الجامع الكبير. سمعوا صيحات عمال المقاهي يطلبون تحضير وجبات الزبائن، والضجة المعتادة في سوق كبير مزدحم، الباعة فيه أكثر عدداً من المشترين. باعة زائدون عن النصاب، بسحنات فاحمة، من مختلف الأعمار، استسهلوا الكسب دون بذل جهد، فانتشروا فاردين بضائعهم على الأرض، يرددون أسعارها، مادحين مزايدين، عمال مرهقون أعوزتهم الحياة، يقطعون الشارع الرئيسي الذي أهلكته سيارات الأجرة، يبتسمون مترافقين، أو فرادى، ماضين إلى وجهتهم، وشاحنات تجوب الشارع باحثة عمن يلقي به حظه العاثر تحت عجلاتها.

ظل علي علوان مواظباً على تمارينه، مترجماً تراجع تحصيله العلمي إلى تفوق جسدي. كانت التمارين بمثابة خلاصه الأبدي، روتينه اليومي، صلاته المعهودة. أخذت صداقتهم تنمو بنمو أعمارهم الصغيرة. دوماً يهرب الأصدقاء بعد عودتهم من النادي، من سيارة الأجرة، كأنهم ثلاثة سهام اطلقوا من قوس واحدة، يخترقون شارع المدينة الرئيسي والمحال التجارية بلافتاتها المضاءة بالنيون، يقصدون أحد المطاعم، يشترون شطيرة ويتقاسمونها، يجلسون على حافة

الرصيف، ساندين ظهورهم إلى عمود مصباح الشارع. أحياناً، يظل خليل واقفاً، مائلاً بجسمه، متكئاً بإحدى يديه على الحائط، فيما تحمل يده الأخرى سيجارة يخرجها من ثنايا جيب كندورته، فيشعلها وهو يمسح ببصره الحياة في الشارع الواسع، متابعاً بنظراته الزائغة الأجسام المختفية تحت الوشاح الأسود، أو متجهاً من فوره إلى هاتف عمومي للاتصال بإحدى ضحاياه، عازفاً على أوتار قلبها بكلمات ماكرة.

يظل خليل متسكعاً أمام نوافذ معروضات المحلات في الشارع الرئيسي، لا يكل من مطاردة الفتيات، على أمل اكتساب اعجابهن باستعراضاته، كأنه بهذا يعوض نقائصه وشعوره بالدونية، وهو الابن العاشر بين أخوه لا تربطهم بأبيهم سوى شهادات الميلاد.

كانت أسرته طافية فوق بحيرة من فقر، تكفي لإفقاد الإنسان شهيته للعيش، لذا فقد رفض خليل مراراً دعوة أصدقائه إلى بيته، كارهاً الجلوس في البيت، ممضياً أوقاتاً تطول خارجه. كان أبوه قاسياً متزمتاً، ذا ميول صوفية، سمرته حالكة، إحدى عينيه أكبر من الأخرى، حاجباه مشعثان، كرشه متهدلة، ساقاه طويلتان نحيلتان، يميل فمه جهة اليمين عندما يتكلم. كان ينسى أسماء أبنائه لكثرتهم، غير عابئ بمن غاب منهم أو حضر أو بمن عمل أو نهب.

وكان والد خليل ينازع المطوّع مكانته بين أهل الحارة، في حين لم يكن يعرف من الدين سوى تعدد الزوجات، وقد وصل به الحال إلى حد اتهام غريمه بالزندقة، وشتمه في غيابه. هكذا تصدى لإلقاء خطب

الجمعة في حضوره، واحتكر إلقاء المواعظ في غيابه، وأضفى على نفسه مظهر التقي الورع الناصح، من خلال تردده لحفظ دروس يلقيها مطوع المسجد، المعتمد أساساً على ما وعته ذاكرته من سماع أشرطة الوعظ الديني.

غادر خليل الحارة مع أسرته، بعد فضيحة كان بطلها أخوه الأكبر عامر، الشاب الذي احترف العزوبية كي لا يضطر إلى دفع نفقات العرس، كما يقول. سياحته المتواصلة بين الفتيات، جعلته يقع في المحظور، وحكايته بدأت حين نشأت علاقة استلطاف مع فتاه من أسرة مترفة، سرعان ما تطورت إلى عشق ملتهب، ساعدت على إذكاء فحولة عامر الفطرية، وخبرته الواسعة بفنون اللذة.

أقنعها بحبه واستعداده الذهاب معها الى آخر المعمورة، لتأسيس عش الزوجية. دعته نفسه في لحظة سأم، إلى الانفلات من كل الثوابت، ضعف أمام رغباته، صار عبداً لشهوته، فما استطاع عليها صبراً أو مقاومة.

أغوى الفتاه، حملت منه، حافظت على سرها وتدثرت بأسبابه قهراً، حتى انتفخ بطنها. لم يأبه عامر أو يتوقف كثيراً عند بوابة العواطف. انطفأ لهيب شعلة الحب، وعاد يواصل أيامه بعبثه وضياعه. وبعد وقت وتفكير، اكتشف أن لدى الفتاه، ما لم يجده عند غيرها من المتعلقات بأذياله، هو الشاب الوصولي الراغب بالجسد والعز والنسب، فعاد إليها.

استعدت الفتاه للتكيف مع الطارئ المستجد، فكان الحل المتاح وضع أهلها أمام الأمر الواقع. تردد الأهل بين الموافقة، أو قتل عامر. فاحت الرائحة، بدأت الأفواه تلوك سيرة ابنتهم، نبذوا كل القصص، تناسوا السياسة، أهملوا طلب الرزق، وتسامروا مع قصة عامر، حتى تفاجأوا بزواجها سراً.

لم يتوقع أبو خليل السيناريو، زلزل الخبر أركانه، عجزت قدماه عن حمله. وتحت تأثير الحالة، قرر شد الرحال، مع أسرته هرباً من استكمال الجيران المفتونين بالفضائح، الفرجة على ملهاتهم الموجعة. بعد أيام، جلس أبو خليل، بعينين جامدتين كأنهما تتابعان شيئاً غير مرئي، قرب سائق الباص الذي استأجره، وظل صامتاً، سانداً رأسه إلى الوراء، في هيئة النائم، وتفرّق الأبناء مع أمهاتهم على بقية المقاعد.

كانت أنظار علي وحامد وجسار، مصوبة إلى خليل، وهو يتراخى على المقعد الخلفي، مائلاً بجسمه ناحية اليمين، ملصقاً رأسه بزجاج الباص. ملأ الحزن وجهه الذي نخره الجدري، فظل محدقاً بنظرة حزينة صامته، متآكلاً من الداخل.

رحلت الأسرة تلتمس سكناً، فراراً من مرارة الفضيحة. لم يحزن علي علوان في حياته، قدر حزنه على رحيل خليل. خلق مشهد الرحيل في نفسه رهبة أسكنته دوامة حزن. دمّر رحيل صديقه البقية الباقية من ذكريات طفولته بلا رحمة، فاندفعت دموعه، وعاد إلى بيته ساحباً ذيل خواطره معه.

انتزعه من ذكرياته صوت حفيف حذاء يقترب، اعتدل علي علوان في جلسته ساحباً أنفاساً متثاقلة، سانداً ظهره إلى قضبان الباب. لمح طيف السجان يقترب، دافعاً من بين القضبان عبوة ماء صغيرة، قال آمراً: اشرب.

التقط علي العبوة. شرب منها، وشعر بخدر وهو يعود إلى زاوية الزنزانة كأنه يحتمي بها مما قد يفاجئه عند الباب. سكنت الأجواء من حوله، وعاد متكوراً في جلسته متدثراً ذكرياته.

مع وصول علي وصديقه حامد الساحة الرملية، المجاورة لمنزل الحاج علوان، تحلّق حولهم جمهرة من الصبية الحفاة، في زوبعة من صياح ومرح لا يخلوان من شغب. انتهوا من لعب الكرة باهتياج، وتسلقوا عربة ترش الرذاذ السام المضاد للحشرات. اندفع من بينهم صبي أجعد الشعر، مستفزاً بوبي، ضارباً إياها على رأسها بقضيب من حديد، فأخذت تعوي وتأهبت للانقضاض عليهم، في هياج مسعور. انكمش الأطفال خيفة، وأصابهم الهلع، راحوا يركضون باكين، متلفتين وراءهم. اخترقتهم بوبي كالسهم، فأوقعت من بينهم طفلاً بريئاً عارياً، كان يقضم رغيفاً. صرخ الطفل خائفاً، كان خوفه من خوف أمه، التي هرولت إلى الساحة ملتفة بملاءتها السوداء. اختفى بقية الصبية مهرولين خلف البيوت.

كان طفلاً لأجمل أم شريرة يراها علي علوان دوماً، جارتهم أم سيد التي كانت لا تزال تحتفظ بشيء من حيوية الشباب وإغواء الأنوثة.

شعر مفرط الطول، وعيون واسعة براقة بسواد يميل إلى الخضرة، لكنها كانت تعتنق النميمة والتنزه في بيوت الآخرين.

حاول علي جاهداً فض المشكلة وعقد هدنة سلام معها، إلا أنها بدأت بالبكاء، مائلة بجسدها ذات اليمين وذات الشمال. تجمع الناس من حولها في محاولة لثنيها عن إلقاء الشتائم، وأدرك علي أن الحوار معها مستحيل، وأن سداً منيعاً سينفجر ويفرغ محتواه. انهالت أم سيد بدعوات، وشتائم تحت الحزام، خاصة بأم حامد، اخترقت أذني حامد، ودقت قعر سمعه وذهنه وكل حواسه. ارتد حامد إلى الخلف مفزوعاً، فرمقته أم سيد بنظرة نارية، ثم اقتربت منه، أشارت بحركة ماجنة من أصابعها، قبل أن تغمر وجهه ببصقة هائلة. أعمته المفاجأة، فوقف لبرهة جامداً، تلفه الحيرة.

أحس الصديقان أن أعين الواقفين صارت عليهما. ابتلع حامد مرارته بصمت ودون أدنى ضجة، وقبل أن يتطور الأمر الى مستوى الفضيحة الكاملة، قررا الانسحاب. سحب علي سلسلة بوبي وهي تلهث، ومضيا، بينما كان الصبية يرشقون بالحجارة بوبي التي ظلت تنظر خلفها متوجسة، وتئن بوهن.

تلاحقت صور حزينة على ذاكرته توقظ خيالاته وهواجسه. مسح علي علوان جبينه براحة يده، حاول النوم إلا أنه لم يتسلل إلى عينيه، تقلّب بجسده يميناً وشمالاً، واعتدل جالساً محدقاً في الظلام الشبيه بعتمة القلوب الظالمة.

عادت صورة الحاج علوان ترتسم في ذهنه. كيف كان يسحب قدميه المتشققتين متوكئاً على عكاز باحثاً عن نومة تكحل العين، تحت ظل نخلته القديمة.

كان الحاج علوان الذي أجهده الدهر وأذله انتظار الغد الأجمل، حريصاً على تعليم ابنه، لينتقم به من الفقر والمذلة والمهانة. ظل يعد السنين المتبقية لحصول علي على شهادته، طالباً منه ترك الملاكمة التي لا تغني أو تشبع من جوع.

عصر أحد أيام الصيف، بينما كان الحاج علوان جالساً في أحد أركان الحوش، تحت نخلته، ماداً ساقيه، محدقاً ساهماً في الفراغ، ومداعباً زرّ المذياع بحثاً عن محطة تحظى بقبوله، سمع طرقاً خفيفاً على الباب. سألت ابنته الكبرى فاطمة، المتكئة على حافة نافذة الصالة، من الطارق! إلا أنها لم تسمع الجواب. نهضت بقامتها الباسقة، وجسدها الطري، ووجهها الذي نزعت الشمس نضارته، ومشت نحو الباب، بعد أن ازدادت حدة الطرقات.

بشّت فاطمة مرحبة، عندما رأت عمّها مطر، وانحنت على رأسه تقبله في ودّ وعرفان، فيما اندفعت بوبي تتراقص حوله وتتشمم ثيابه وجسمه. خفّ الحاج للترحيب بمقدم أخيه، نهض مترنحاً من دوار فقر دم مزمن، وسعل سعالاً خاوياً، نافضاً غباراً علق بكندورته.

تزاحم من في البيت للسلام عليه، وانهالت عبارات الترحيب، دخل العم مطر الفناء، بسمرته النحاسية، رقبته المبرقعة بالثآليل، لحيته المصبوغة بالحناء، عصاه الملساء المرنة، وخاتم قديم من فضّة

يحمل حجراً من العقيق. كان ملولاً، صعب المراس، شبيهاً ببيئته الصحراوية حيث نشأ، يعتبر العم مطر من عظام رقبة عائلة آل علوان، علاقاته واسعة، وشفاعته مستجابة، وأصدقاؤه من أصحاب المناصب والمكاسب. كانت زياراته الموسمية الخاطفة، من دون سابق إنذار إلى أخيه الأصغر علوان، تجعله مطمئناً إلى أنه يقوم بواجب البر تجاهه، على أكمل وجه.

هيأ علي نفسه للسلام على عمه. مدّ له حصيراً متواضعاً من صناعة محلية ومساند صلبة، بجانب البئر التي ترتفع فوهتها عن الأرض مسافة متر تقريباً. اقترب العم مطر وتخلص من حذائه، ثم جلس ثانياً ركبته اليمنى أمامه، فيما رجله الأخرى ممدودة تحته. أخذت أصابعه تفقش حبات التمر لإخراج النوى. بعد قليل، جاءت أم علي مرحّبة، حاملة دلة القهوة، قرفصت وأصوات قرقعة مفاصلها تحتك ببعضها، اتكأت متحسسة بيديها اليابستين الأرض، ثم عالجت وضع شيلتها السوداء فوق رأسها. مد العم مطر يده إلى فنجان القهوة الذي أنهى علي صبّه، دلقه في جوفه، سكب له علي فنجاناً آخر، فتناوله في رشفات سريعة، ثم هزه معلناً اكتفاءه.

تشرّب علي بالرضاعة، الخوف من أبيه ورهبة عمه مطر الذي بدا أن تخطيه العقد السادس، لم يؤثر في لياقته الصحية أو الذهنية. جلس مقابلاً له، وهو يقضم أظافره بتوتر، منتقياً ألفاظه بعناية، متحاشياً الاحتكاك معه بالنظر. باشر العم مطر حديثه، مشيراً بسبابته إلى علي،

سائلاً عن دراسته، فلم يرد الأخير وبدا كأنه لم يسمع السؤال. خاطبه الحاج بهيمنة أبوية، ناظراً إليه بعبوس: رد على عمك، فأجاب علي وهو يتطلع إلى السماء في برود: لقد تركت الدراسة... ليس منها فائدة.

جاء الردّ جارحاً لسكينة عمه، مستفزاً لأعصابه، فحدجه بنظرة عميقة، فاحصة، مندهشة، قبل ان يمسك ذقنه، مستغرقاً في تأمل صامت. بعد لحظات، أمسك العم مطر بكتف علي بأصابع كأنها قُدت من حديد، وقال: مع بداية العام الدراسي، ستذهب إلى مدرسة عسكرية.

رنّ الخبر في آذان الجميع، كقطعة معدنية وقعت على الرخام. شهقت أم علي، واضعة كفها قرب فمها، وقالت وعلامات التعجب تكاد تقفز من بين حاجبيها: عسكرية! فأدخل العم مطر سبابته اليمنى في تجويف أذنه وطفق يهزها في تلذّذ، ثم أخرجها وتابع حديثه، مغالياً في وصف حسنات المدرسة، شارحاً المناخ العام، والصيت الطيب، وأن الطالب يبيت في الثكنة ويعود لأهله يوم الخميس من كل اسبوع، مضيفاً كيف ستفيد في إكسابه صلابة وخشونة يفتقدهما، منهياً أن العسكرية مفخرة وتضحية تورثان الشرف.

تحدث العم مطر بإسهاب، واستمع له الحاج، هازاً رأسه، موافقاً على كل جملة، عاقداً حاجبيه باهتمام حين ذكر العم المبلغ الرمزي الذي سيتقاضاه علي ويساعدهم على ضراوة العوز، وسد متطلبات الحياة. انكمش علي في حضن الصمت، وداهمه إحساس غامض بأن أطناناً من القيود ستكبل قدميه. لكنه لم يستسلم، بل نهض وقرفص

أمام عمه، واضعاً يديه على ركبتيه كمن هو في حالة صلاة، وذكر له في رجاء واستعطاف، بعد أن اضطربت نظراته، وتبعثرت الكلمات على لسانه، موضوع الملاكمة، وكيف يذهب يومياً للتمرّن في النادي، وكيف أنه على أعتاب المشاركة في بطولة ذات اعتبار عالمي.

رشقه عمه بنظرة لوم وعتب. وببساطة الواثق من تطبيقه للعادات والتقاليد، بكل أمانه وحزم، أجابه: لا، عيب. وأكد جدية تحذيره، مضيفاً: هل سمعت؟

عاد علي إلى مكانه محبطاً، يأكله الغيظ والإحساس بالظلم، وخيّم صمت مطبق، قطعه نداء صلاة المغرب. وقف العم مطر وصلى على النبي، ثم مضى من فوره، باتجاه الجامع، قبل أن تزدحم جوانبه بأفواج العابدين، يتبعه الحاج علوان، وأيضاً علي برفقة حامد الذي التقاه في الطريق.

دخل علي وحامد الحمام للوضوء، فنظر إليهما العم مطر وهو يفتح الصنبور على آخره، وقال مشيراً بيده نحو حامد مستفسراً: ابن من هذا ؟! تراجع حامد مضطرباً، فأجابه الحاج علوان، متمضمضاً بالوضوء، بأنه حامد، صديق علي، وابن جارهم المرحوم أحمد، وأمه زينب. قال العم مطر، وقد شمّر عن ساقيه وساعديه وماء الوضوء يتقاطر منه: لا بد أن ترافق علي إلى المدرسة العسكرية. اعترض حامد مستنكراً: أي مدرسة! فرد العم: مدرسة ستعلمكما كيف تصبحان رجلين... سأقنع أمك في الغد. لم يعلّق حامد، طأطأ رأسه، منسحباً من الحمام.

تقدم العم مطر الصفوف، منهياً صلاة لم يتذوق فيها الخشوع، وملقياً بعدها التحية على المطوع. عاد حافي القدمين، بعد أن سرق أحدهم حذاءه، فشتم وشوح بيده في غيظ وغضب، وتحلق المصلون حوله يرمقونه بإشفاق.

عاد العم إلى جلسته السابقة، تحت النخلة، حتى وافتهم الأم بوجبة العشاء التي اجتهدت في إعدادها بمساعدة ابنتيها. كان نصيبهم قطعة من اللحم جاءتهم من جار ماتت زوجته واجتاحه أسى غامر لفقدانها، فأخذ يوزع اللحم ترحماً عليها. انحنى العم مطر على الطبق، وعيناه تلتمعان طمعاً وشراهة، ثم تربّع وبدأ يأكل مبتهجاً. أخذ يلوك قطع اللحم بشهية كبيرة، يملأ راحته من الصحن الواسع، جامعاً الأرز المشبع دهناً، رافعاً إياه إلى فمه في لقم كبيرة سريعة، متلاحقة.

تساءل الحاج علوان متوددًا، وهو يزيح قطع اللحم من أمامه، ويضعها أمام أخيه الأكبر، هل لديه نية للزواج! فتجشأ العم مطر، وأجابه وآثار الدهن بادية على شاربيه وأسفل ذقنه، أنه لا يزال يبحث عن بنت الحلال.

بعد انتهاء العشاء، وقبل أن يشتد الظلام، غادر العم مطر بهيكله العظمي وساقيه الرفيعتين، مودعاً الجميع، قائلاً إنه مسافر غداً إلى مكة لإتمام ركن الغفران، فيما توجه علي إلى حجرته مسرعاً، تسبقه دموعه، صافقاً الباب وراءه بقوة، قبل أن ينفجر بالبكاء.

★

في اليوم التالي، حمل الحاج علوان جسده على قدميه، متحاشياً النظر إلى ابنه، جامعاً أوراق التسجيل في المدرسة. كان يشعر بالانتصار إذ استطاع أخوه مطر، كبح جماح ابنه. بعد عدة أسابيع، جاءت موافقة انضمام علي مع صديقه حامد، إلى مدرسة عسكرية صارمة.

لم يكن في الخبر ما يسرّ الصديقين، فأحسّا بالكآبة، وغاب عنهما الصفاء لعدة أيام. راح علي يحاول استيعاب ما يحصل له، لكن كيف يستطيع العقل ذو الخمسة عشر ربيعاً، أن يحدد موقفه من العسكرية!

قاطعت شرود علي علوان في محبسه، نقرات متكررة على جدار السجن! جال بعينين مطموستين على الأركان المعتمة، وضع أذنه اليمنى على الجدار الرطب، وأصاخ السمع بلهفة، إلا أن الطرقات توقفت. بعد ثوان معدودة، خرج صوت واهن، أشبه بأنين يخرج من فتحة قبر، لكنه ما لبث أن تحول موالاً بدوياً حزيناً، بنغمة شجيّة.

ظل علي مشدوهاً وقد تحجرت الدموع في عينيه، بعد أن سافر به الموال في ظلماته الداخلية، موقظاً كل خلية من خلايا ذاكرته، وحزناً كبيراً على صديق طفولته ويفاعته حامد.

يوم جاءتهم الأوامر، في عزّ مربعانية الشتاء، بالتحرك إلى منطقة مشؤومة تنخلع عند ذكرها قلوب الجنود، للالتحام مع فرقة من الحرس الجمهوري العراقي، اجتاحت الأفق الغربي غيوم سوداء، تسحّ بمطر واهن. انقضت ساعات ثلاث منذ مغادرتهم المعسكر في حاملة جنود تحمل عشرين من المغاوير، مدججين بالسلاح، ترافقهم فرقة مارينز بعربة هامر، بقيادة سيرجنت أمريكي.

قطعت العربات طرقاً صخرية وعرة، قفاراً نائية جرداء، حجارة متناثرة، وسفوحاً عالية تخفي وراءها انجرافات سيول قديمة. ظلت رؤوس الجنود تتمايل مع وعورة الطرق، فيما الأجساد تحتضن البنادق، مترقبة لقاء الموت بين لحظة وأخرى. وفدوا إلى امتداد شاسع من الأراضي الزراعية ومزارع النخيل، تتخللها طرقات معبدة، حفر، وبرك مائية، حتى انفتح أمامهم البر فجأة.

اخترقت أضواء المركبات ظلمة الليل. مروا بقافلة عسكرية أعاقها الوحل وشلّ حركتها، وبأخرى مرّت بلغم لا محيد عنه. استمرت حركة القافلة بالرتابة نفسها، وبلغوا سهلاً أجرد، ينحدر بهم أحياناً إلى طريق بصخور ملساء، وأخرى ترابية وعرة. طال بهم المسير، وطال معه انتظارهم للفرج. تقدموا ببطء وحذر، متخذين الاحتياطات اللازمة. أطفأوا أنوار العربات. كان الصمت يطبق على الفيافي الواسعة، لا يقطعه إلا أزيز الرياح وهي تحرك الرمال حيثما تشاء، وتؤجج ألسنة اللهب المتصاعدة من حقول النفط.

توقفت عربة الهامر، هبط منها السيرجنت، تبعه الجميع. أرض جرداء واسعة متفحمة، لم تخمد جذوتها، أشعلتها قنابل ألقيت تواً، ورائحة غريبة يأتي بها الهواء. أعطى السيرجنت أمراً واضحاً بضرورة اتباع تعليماته لضمان سلامة تحرك الفرقة، وإنجاح خطته الرامية إلى تحرير بعض الجنود من كمين محكم، أقامه الحرس الجمهوري.

بمساعدة المناظير الليلية، سار السيرجنت على رأس القوة. عبروا الأرض الترابية في ترقّب حذر، يتلفتون يمنة ويسرة، حتى أصبحوا قريبين من الكمين، فجعلوا من بعض الأشجار ستاراً لهم. الأشجار تخنق المكان، وتحجب الخنادق عن الأنظار. اتخذ الجنود وضعية الرمي، استعداداً للصدام، وانتظروا إشارة السيرجنت للتنفيذ. عاود السيرجنت النظر في عدسته المقرّبة، ثم حام حول الجنود، يحفزهم على الصمود وانتظار الأمر. كان ليلاً دامساً مخيفاً، ينبض بالخطر، الضباب يجثو بكل قوته على المكان، والبرد شديد يجمّد الأطراف. جاء الأمر بالمسير نحو نقطة محددة، ظهر في ما بعد أنها أحد الخنادق الكبيرة. تفاقم هاجس الخوف وتلاصقت أجساد الجنود، كُتمت أنفاسهم، وتطلعت أعينهم إلى نقطة الالتقاء مع المتمترسين خلف صمتهم المفخخ.

تقدموا يلفهم السواد، يسيرون ويتوقفون، يلتفتون بحذر، ثم يعاودون المسير. تموضعوا في أماكنهم استعداداً للصدام، شاهدوا الجنود العراقيين يتسامرون بين قائم وجالس ومتكئ على جنبه، تبادلوا

نظرات خرساء توحي بأنهم باتوا جاهزين للهجوم. فتح علي علوان عينيه كأنه يريد ان يسمع بهما جيداً. تجمعت حواسه كلها في أذنيه وعينيه، كي لا تفوته أية حركة مفاجئة. تقدم معه حامد إلى الخندق محترساً، مهدداً بسلاحه.

سعى العراقيون إلى إبعاد الجنود المتقدمين، أطلقوا دفقات من فوهات رشاشاتهم فجأة، من بين سواتر أكياس الرمل، بعد أن تلقوا عنف الرصاص المباغت. رد رجال المارينز وجنود التحالف عليهم بكثافة، قابلوا النار بالنار، أمطروهم بكل ما يملكون من وسائل الإهلاك، فتهاوى العراقيون تباعاً، متخبطين في دمائهم.

استمرت المناوشات قرابة عشرين دقيقة، طلب خلالها السيرجنت دعماً جوياً، بعد تحديده الإحداثيات بدقة. وانتهت المهمة، حين تأكد من عدم وجود قناصة على مرمى البصر، وأمر المارينز بإطلاق كلب الإنقاذ – الجيرمن شيبرد– للبحث عن ناجين، داخل الخندق.

قذف حامد بنفسه إلى الخندق الطويل، وهو يسمع لهاثه ووجيب قلبه. استرخى فوق صندوق ذخيرة فارغ، محاولاً أن يوائم بين صدمته، وبين شعوره بالمرارة. بدأ الجميع بتفتيش الخندق وتطهيره، بينما استكان الفتى الذي توقع الحرب نزهة. بدت معنوياته كتلة تتفتت، قطعه بعد أخرى. لم يصدق ما رآه للوهلة الأولى. روائح الموت تملأ منخريه، شواء لحوم مهترئة متفحمة جافة تهاوت تحت وطأة قنابل الموت، لطخات معتمة على تراب مشبع ببرك دماء، وأخرى

حمراء قانية على الجدران، أجساد ممزقة، أصوات حشرجات، دماء متخثرة يطن فوقها الذباب. وجد نفسه في مستنقع القتل الإجباري، خائضاً حرباً ضروساً بالإنابة، شاهداً على الفظاعات، وهو ابن الثلاثة والعشرين ربيعاً. تحاشى النظر إلى زملاء سُلبت الرحمة من قلوبهم وأسرفوا في القتل، ينهبون مسدسات وذخائر كذكرى نصر لاحت بوادره، أشاح بوجهه كأن ضوءاً ساطعاً فاجأ عينيه.

مسح بيده المنتفضة جبينه، مستهجناً همجية البشر، لاعناً رذاذاً دافئاً متقطعاً محمّلاً بعوالق سوداء، يسحّ على وجهه وخلف أذنيه ورقبته، واليومَ الذي اقترن فيه بالعسكرية. أطل فجأة شبح من الضباب، متقدماً نحو حامد بخطوات متثاقلة. كتم حامد الهواء حابساً إياه في صدره، بينما صوّب بندقيته نحو الهدف، صارخاً: توقف. لاحظ على المتقدّم بعض اضطراب وكثرة تلفت، كان جندياً عراقياً مصاباً مستسلماً، حاملاً البقايا التي ما زالت تنبض في جسده. هرع أحد زملاء حامد لتفتيشه، متحسساً خصره، مادأً يديه بين ساقيه، نزولاً الى قدميه. وحين انتهت عملية التفتيش، قال له حامد: تقدم. إلا أن السيرجنت، ومن دون مقدمات، انتزع البندقية من يد حامد، وجّه فوهتها إلى رأس الرجل، وأطلق رصاصة بين حاجبيه، قبل أن يصيح في أعوانه: الأسير كاللعنة، لن تتوقع كيف سيعوض احساسه بالخزي... لقد انتهت المهمة، هيا بنا.

كادت الحيرة تفجّر رأس حامد، تساءل عن سبب كل هذا

البلاء، وتفشى في جسده المستسلم خدر غريب. ظل محملقاً في جثة جندي متخشبة، بملابس مهلهلة. كتفان بلا ذراع، وذراع بلا يد، وعينان شاخصتان بدتا يقظتين. لم يستطع حامد أن يخفي صدمته، فانفجر غضباً. قفز باتجاه السيرجنت وأمسكه من تلابيب ملابسه، جذبه من قميصه، صائحاً بملء فيه، مزلزلاً المكان : لماذا، لماذا، عليكم اللعنة! تشبث به عدد من زملائه، سحبوه وهو منكمش على نفسه، يهتز مرتجفاً، وأعادوه إلى مقعده فوق صندوق الذخيرة، حيث أقنعوه أن الأمور ستكون على ما يرام. غمر حامد وجهه بكفيه، سالت دموعه، فآزرته السماء بمطرها.

أمر السيرجنت الذي غطى الوشم ذراعيه، بطمر الخندق عن طريق تلغيمه. فانتصب حامد سائراً بين الهياكل العظمية. قال له علي علوان مخففاً عنه: إنها الحرب يا صديقي، ما الذي كنت تتوقعه! لكن حامد أخذ يدور في المكان مثل فأر وجد نفسه فجأة داخل مصيدة، ثم قال بصوت مخنوق: علينا مواراة الجثث، هم في النهاية بشر! ثم راح يغمض أعينهم الشاخصة، مهمهماً: جميعنا خاسرون، حتى وإن توهمنا النصر.

أحس علي علوان بأن ذراعي حامد لم تعد تقويان على حمل بندقيته، فتناول منه سلاحه، ألقاه على كتفه، واحتضن حامد بما يشبه احتضان الاخ الكبير لأخيه الصغير، قبل ان يخرجه من الخندق مهدوداً، متسمراً، وكأن حامد يحمل في داخله الشخص الآخر الذي صاره.

بزغ فجر الصباح، وأشرقت الشمس على المكان البائس، كاشفة صفوفاً متراصة في نظام عجيب، أعـداداً لا حصر لها من الجنود العراقيين خرجوا من جحورهم، ونشروا بيارق بيضاء دلالة استسلامهم. كانوا منكّسي الرؤوس، تدور أعينهم في مآقيها هلعاً، لم تكبل أيديهم. أحصوهم عدداً، ثم ساقوهم الى الحافلات.

غـادرت الفرقة أرض المعركة يتقدمها السيرجنت. ركض الممرضون يتناولون حامد من عربة الجند، ليدخلوه المشفى الميداني. صدره ينتفخ ويتقلص من لهاث عميق. أعطاه الطبيب إبرة مهدئة علها تزيح عن كاهله يوماً عامراً بالعناء...

كان علي علوان مقتنعاً بأن البكاء لن يفيده، فالجرح في قلبه يؤلمه أكثر من الذي في ساقه. أحسّ ولأول مرة، رغم الهمّ، بسلام داخلي. خالجته الرغبة في الصلاة. لكن، كيف يصلي وهو لا يعلم متى يبدأ اليوم ومتى ينتهي، أو حتى موعد صلاة ينفث عبرها همومه. ثم تذكّر بأنه على غير وضوء، فأغمض عينيه، أخذ نفساً عميقاً، وضع يديه أمام وجهه يتلو الفاتحة، وظل في مناجاته حتى عادت السكينة الى قلبه المضطرب. شعر بأن لا مهرب من الله إلا إليه، وأن الإفراج سيكون قريباً بإذنه تعالى.

في يومه السابع، ومع خيوط الفجر الأولى، استيقظ على صداع قاس ضرب خلايا دماغه من جذورها، تبعته جولات من الغثيان. كانت عيناه تترنحان في المنطقة الوسطى، ما بين اليقظة والنوم. أدار رأسه

بصعوبة ناحية الباب الحديدي، وببطء شديد، كأن عنقه لم يعد قادراً على حمل دماغه الممتلئة بين تلافيفها بعشرات الأفكار. كانت ملابسه متصلبة من الوسخ وطبقات العرق تفوح برائحة بول نفاثة، تشربتها أنسجة بنطاله وقد نزّت منها إفرازات الدمامل. ظل على حاله مستلقياً، حتى تمام التاسعة، عندما أبلغه السجان أنه مطلوب في غرفة مدير السجن.

طلب علي استبدال ملابسه بأخرى نظيفة. استجيب طلبه خلال دقائق. حاول أن ينتصب، فلم تسعفه قواه، حاول ثانية وثالثة، حتى نهض واستبدل ملابسه، متكئاً على الحائط. أخذ علي يتحّسس طريقه في الممر متلصصاً، آملاً اقتناص فرصة مشاهدة جاره في الانفرادية، وهو يسعل بلغماً، استغرق وقتاً طويلاً في محاولة انتزاعه من جدار حنجرته. بصق على الأرض فما خرج من فمه، إلا صوت بصقة دون رذاذ. أمسك به الحارس من عضده بقسوة، وقد التوت شفتاه غضباً قائلاً: هيا تحرك، فمضى علي وهو يخرّ، يشرق المخاط من فتحتي أنفه ويبتلعه. شعر بلفحة هواء صيفي منعش، فحنى رأسه مقاوماً بكفه الأيمن، ضوء النهار الذي وقع فجأة على عينيه.

كان الطريق أمامه مرصوفاً بالحجارة، وقد شُذبت الزهور على جنباته وغسل مراراً. امتدت الحجارة إلى أن أوصلته درجات رخامية صاعدة، تفضي إلى بناء حديث تعلوه قبّة بقرميد أحمر، وتحيط به أشجار متسلقة. صعد متثاقل الخطوات وولج مدخلاً فسيحاً، في زاويته مقعد عريض خشبي، على جانبيه أوعية زهور وحشائش.

كان الصمت سيد المكان. حراس سجن يترتب على وظيفتهم الحزم، يدخلون فرادى ويخرجون صامتين، كأن على أفواههم أقفالاً، أو كأن من شروط ارتياد المكان التحلّي بالخرس. استوقفه الحارس عند البهو، ضاغطاً على ساعده، محذراً: انتبه، ستدخل إلى مدير السجن، لا تسبب أية مشاكل. وصلا أمام أحد الأبواب، طرقه الحارس، وانتظرا، إلى أن سمعا صوتاً يأمرهما بالدخول. ولجا حجرة بها ضابط برتبة رائد، يجلس وراء مكتب يقلب أوراق تراصت أمامه. وما هي إلا لحظات حتى ندّت عن الرائد تنهيدة، فطوى نظارته في حاوية جلدية صغيرة وضعها في جيبه، ثم نظر إلى علي وطلب منه الجلوس.

غاص علي علوان في كرسي خمري اللون من جلد فاخر، تراخى فيه طلباً للراحة، بينما ظل الحارس واقفاً خلفه بهيئة الاستعداد. كانت ساعة الحائط الذهبية تشير إلى التاسعة وعشرين دقيقة، حين انتصب الرائد من خلف مكتبه، ليحلّ سحاب حقيبة جلدية سوداء، مخرجاً محتوياتها. ملفات بأحجام وألوان متعددة، ميّز علي من بينها ملفاً أصفر اللون، رقيق الحجم، يحمل تفاصيل حياته، منذ انتسابه إلى الجيش، وحتى تصنيفه كسجين خطير! خمسة عشر عاماً تلخصها أوراق قليلة! هكذا ردد علي في نفسه.

بلباقة ولطف، أمر الرائد الحارس بمغادرة الحجرة، قبل أن يتوجه الى النافذة الوحيدة، أبعد طرف ستارتها، فانساب النور بخجل. قال

الرائد، مرسلاً بصره إلى الخارج وموقظاً صمت الغرفة: كيف حالك يا سيرجنت علي!

سيرجنت! كم يمقت علي هذه الكلمة برغم جمالها ونغمها الموسيقي المزروع في وجدانه، منذ عاصفة الصحراء. لكنه أجاب بصوت متقطع، موهن: بخير.

رفع علي علوان بصره فوقعت عيناه على وجه الرائد. كان في الأربعين من عمره، متوسط الطول، قمحي البشرة، له لحية شذبت بعناية، ذراعان مليئتان بغابات من الشعر المكوّر، تحيط بمعصمه ساعة فضية كبيرة، ذات اسم عالمي، وتبدو على ملامحه نذر الشدة والصرامة.

أخذ علي يضغط على صدغيه، من أثر الصداع، فتقدم منه الرائد مبتسماً، مادّاً إليه سيجارة أخرجها من ثنايا جيب بدلته العسكرية. أخذها علي شاكراً، متحاشياً بإصرار أن تصطدم عيناه بعيني الرائد. مج علي السيجارة بهدوء، فسأله الرائد عن أحواله في الحبس! فأجابه وهو ينفث دخان سيجارته الأبيض: أوكيه، إلا أنهم عاملوني كأني أسير ذنب، أو رهين معصية. رد الرائد بوضوح قاتل: هذا هو وضعك بالضبط، وبدت كلماته أكثر ملوحة وأكثر حدة. تابع يسأله بخبرة الضابط العارف، عن مهنته ووحدته، فأجابه علي بأنه جندي مشاة من الوحدة البرية.

راح الرائد يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، واضعاً يديه خلف ظهره، متسائلاً عن سبب ضرب علي للوكيل! ما كان عليه أن ينهرني بعنف،

أو أن يحاول صفعي على مرأى من الحراس والمساجين، رد علي، فقاطعه الرائد: لكنك أسأت بهذا التصرف إلى مكانته بينهم، أضعفت شخصيته، وأذهبت هيبته. اعتصم علي بالصمت، فاعتبر الرائد صمته إجابه تدينه، وصلت إليه عبر أقصر طريق.

طرقات خفيفة، ثم دخل شاب بحلته العسكرية ذات النجوم الثلاث اللامعة والكاب الأخضر، يزين وجهه إطار اكاديمي. حيّاهما وهو يلامس قبعته بأطراف أنامله، فرد عليه الرائد باحترام يليق برتبتين في مكان خاص. كان النقيب الشاب يحمل قلماً وبضع أوراق متفرقة، ألقى بجسده على مقعد مقابل المكتب، وانكبّ على كتابة محضر وتسجيل إفادة، مسترقاً النظر إلى السجين المتهالك على الكرسي المقابل.

أشعل الرائد سيجارة، أخذ منها نفساً عميقاً، نافثاً غيمة مركزة من الدخان وهو يجول في الحجرة. سار باتجاه خزانة حديدية أخرج منها بعض الملفات، تصفحها كأنه يبحث عن حل لمعضلة ما، إلى أن اختار منها ملفاً أزرق اللون، أخرج منه مغلفاً فض محتواه، ثم فجأة قذف ببعض الأوراق إلى حضن علي، قائلاً هذه أوراق تحوي معلومات مدونة عن جنود شاركوا وأصيبوا أثناء نكبة الخليج، مردفاً: لست أول أو آخر جندي يصاب يا سيرجنت.

شعر علي بعمق الإهانة التي تلقاها تواً. كيف يجرؤ الرائد على نسيان مواقفه البطولية، كيف يتجاهل مآثره ويدير لها ظهره. آلمه هذا

النكران، فسحب نفساً آخر من سيجارته، ناظراً إليه بشجاعة انتحارية، مزيلاً قلقاً مختبئاً تحت إبطه: لقد كنا نخدم قضية، يا سيدي، لم نذهب للفرجة، فما كان من الرائد إلا أن هز رأسه موافقاً، دون كلام، ثم تقدم من خارطة كبيرة تحتل أحد الجدران، مشيراً بيده : الخفجي، الخفجي يا سيرجنت علي، سمعت بأنك حصلت على وسام الشجاعة... جميل، لكن كيف حصل هذا؟ أثار السؤال صدى ذكرى قديمة في نفس علي، فبدأ ذهنه يرتب أفكاره ويعيد بناء بانوراما المعركة، حتى أصبح كل شيء واضحاً أمام مخيلته كل الوضوح.

روى علي علوان كيف لاحظت الطلائع المتقدمة تحركاً غامضاً، لقوات العدو. ذهبت فرقتنا مع فريق – وُلف – نخبة مشاة البحرية المارينز، للاستطلاع وتمشيط المدينة وحواريها المتعرجة. فوجئنا بوجود عناصر الفرقة العراقية الآلية الخامسة. خدعونا، تظاهروا بالاستسلام حتى يعبروا المدينة. كثافة جنود تدفقت حتى احتلوا مواقع متقدمة. بدأوا برمينا، فبادلناهم القتال، من منزل إلى منزل، حتى طلبوا دعماً لوجستياً من مدفعيتهم. ارتبكنا، لم نعد نعرف من أين تأتينا الضربات. أحسسنا أن العراقيين موجودون في كل ثنية وحارة، وتحت كل حجر. أصبحنا منكشفين، عراة، فقدنا آخر ورقة توت، باتت حياتنا محاصرة، ولم يكن من الممكن لنا الصمود. لكن الظلام ساعدنا على الاحتماء في الاحياء المعتمة المتداخلة الملتفة. تسللنا من بيت مطفأ الأضواء، وتحصّنا في البرج الواقع بمنتصف المدينة. كنا لا نزيد على

عشرة أشخاص، بنادقنا الرشاشة متأهبة وأصابعنا على الزناد. راوحت الأمور مكانها يومين في البرج، لم يكن هناك أمل لأي انفراج. اشتد البرد علينا في ليل الخفجي الشتوي القاسي، حتى ضاقت علينا أنفسنا. مع هذا، تساندنا حتى لا نسمح لمعنوياتنا بالانهيار. كنا نفترش الأرض وننام على ما تيسر. تقاسمنا الأرزاق، عشنا على قليل من الماء والزاد. كان العراقيون أسفلنا مباشرة، كنا نرتجف هلعاً كلما سمعنا أصواتهم، نحن الذين تدربنا لنكون قتلة بالفطرة، آلات قتل بحتة فعالة.

طلبنا من القيادة التعزيزات ومواصلة القصف لتشتيت الانتباه. في مساء اليوم الثاني، جاءت الأوامر إلى رقيب المارينز بحرق كل الشفرات، والاستعداد للتضحية. كان الرقيب معروفاً بكونه أعتى الجنود الاشداء، وأمتنهم بنياناً وأشجعهم قلباً. رفع يده إلى السماء وقام برسم الصليب على صدره قائلاً – فلتحفظنا السماء يا أصدقائي. استنفدنا الوقت ننتظر برهبة قدوم التعزيزات. إلا أن المفاجأة جاءت حين باغتتنا بعض عناصر العدو في البرج ونحن نيام، رغم أننا عمدنا إلى الباب الرئيسي بركيزة من الخشب حتى نمنع فتحه بالقوة. انهالت علينا الطلقات، دافعنا عن أنفسنا، تم دعمنا بهجوم جوي. ضجيج طائرات كسرت حاجز الصوت، اصطادت كتيبة آلية من الدبابات العراقية في المدينة، بشكل واسع. كان رقيب المارينز متعاطفاً مع جندي من ملته أصيب بطلقة استقرت تحت لوح كتفه. سقطت قطرات غامقة من دمه إلى الأرض، وظل ينزف حتى ذهبت روحه إلى ربها.

كان الرائد يستمع إلى علي وهو يجول في أرجاء الغرفة، فقال بنبرة هادئة محايدة: جميل فعلاً ما رويته تواً، لكن لا تنس أن هذا واجبك، لقد تمّ تدريبك على مواجهة الصعاب يا سيرجنت علي.

أربكت الجملة علي. لم يكن ينقصه إلا الخروج من جحيم السجن إلى فضاءات تصطدم بسماجة الرائد. كان عليه الرد والتصرف في مواجهة شهوة التعقيد، فحدج الرائد بنظرة قاسية، مجيباً بحسرة: ما الذي تتوقعه من جندي في موقف كهذا، معزول عن الدنيا وأحداثها، للتضحية جنود يتقنونها...سيدي.

مغالباً عطسة قويه هاجمته، طلب الرائد من النقيب الشاب أن يتولى عنه طرح الأسئلة. بذل علي جهداً مضاعفاً للسيطرة على نفسه، حتى لا يتطاول على مسار التحقيق ويلغيه من مضمونه. كان مقتنعاً أن مصيره ومستقبله وخروجه من هذا الجحيم الذي يعايشه مرتبط بضبط نفسه.

استمرّت الأسئلة هي نفسها، عن سبب إهانته لوكيل السجن، واستمرّ علي يدور بعينيه في أرجاء الغرفة، ماذا تريدون مني أن أقول؟ وعن أي شيء تريدون أن أعتذر؟ لا شيء يقال، أو حتى عذر يُقبل. رن جرس الهاتف، تقدم الرائد نحوه رافعاً السماعة، متحدثاً لثوان، متطلعاً ومعتذراً الى النقيب بضرورة انصرافه. انتصب النقيب، بينما عدّل الرائد البيريه، شدّ كتفيه، ووضع الملف الأصفر داخل حقيبته التي حملها، مردفاً وهو ينسحب من الحجرة: سترجع إلى الحبس، سيرجنت علي، وتنتظر يوماً أو بعض يوم حتى يأتيك الرد.

بعد أن غادر الرائد، عاد النقيب الشاب للجلوس على كرسيّه، مد يده الى أوراقه، أمسك بواحدة ناولها لعلي، ورقة محاكمة قديمة تلخصت تفاصيلها كما يلي – الخروج من المعسكر دون إذن الضابط –. قال علي إنها اعتبرت كيدية، بعد أن تقدمت بكتاب استرحام. رد النقيب باسماً: أتعبتنا معك يا علي، ثم استرخى يشرح وجهة نظره، وهو ينقر بإصبعه سطح المكتب: من الافضل أن تتجاوب معي، فأنا لا أحب مناقشة التفاصيل، فكما يقولون، في التفاصيل يكمن الشيطان.

ظل علي مشتت الفكر، زائغ النظرات. لقد استطاع النقيب الشاب بكلماته أن يستولي على مشاعره، حتى وإن بدت على ملامحه الانكسار. تفاجأ به ينتصب مقبلاً نحوه في ود، ملقياً قبضته الشابة على كتفه. تلاقت أنفاسهما. ابتسم النقيب متسائلاً: كيف حال أبوك، الحاج علوان!

وقعت الجملة في أذن علي كالقذيفة، توجس ريبة، ركّز بصره، لم تسعفه ذاكرته التي طالما هبت لنجدته، أطال النظر في وجه محدثه. قهقه النقيب، ثم أضاف مسترسلاً: كيف حال سلمى! اخترقت عينا علي عيني النقيب. لحظة كالبرق الخاطف، قفزت صورة خليل إلى عينيه، آثار بقع الجدري ما زالت على وجهه.

كاد علي يسقط بين قدمي النقيب من هول المفاجأة. فرّت عيناه إلى السقف، حيث الصورة تتأرجح هناك. صورة الصباح المثقل بالتوقع والرهبة، وحكاية ظلت قابعة في أحد أركان ذاكرته، منذ زمن

يزيد على ثلاثة عشر عاماً. أفاق علي من شروده، ململماً بقايا روحه، محاولاً التماسك، بينما ضمّه خليل إليه، معانقاً.

– سأطالب بعرضك على الفحص الطبي، لتحديد مدى تحملك مسؤولية ما حدث لوكيل السجن.

قال النقيب خليل، مشيراً بطرف عينه أنه سيفعل المستحيل لإخراجه من زنزانته الانفرادية، مذكراً بفوائد الصبر، وثمار احتمال المكاره، ثم نادى الحارس الواقف بالباب وأمره بإعادة الرقيب إلى الحبس.

★

لمح علي علوان، وسط الظلام، حفرة المستراح أسفل الجدار المقابل، وراح يتابع تحركات الحشرات وهي تقطع المسافة بينه وبين الحفرة. كان حذراً من احتمال ظهور عقارب تسعى، كالتي رآها تدب ليلاً، عند حواف خيمته، في صحراء الخفجي.

مرّت الساعات، لزجة، ثقيلة، فأخذ يسترجع كلمات صديقه خليل التي بعثت ظلال طمأنينة في روحه المترقبة الخائفة. تذكر سؤاله عن سلمى التي لم يكفّ طيفها عن مناوشته. ضرب علي براحة يده بعوضه وقفت على خده، ثم أخذ يقضم أظفاره بعد أن لاحظ استطالتها. صفّر أغنية لفيروز، فأدخلت دفئاً إلى قلبه، ساكبة عليه السلوان. غام في سحابة من الشرود، وداهم جسده القوي ارتعاشة تشي بذكرى غرام قديم.

مع سلمى استشعر الخفقات الأولى لمعنى الحبّ. تذكّر يوم اقترب هو من عالم الكبار، وأعلن جسد سلمى نضج أنوثته. شيئاً فشيئاً، بدأ علي علوان يداعب حرمانها الحنان، وتعطشها للإعجاب بها. صارت تكثر الوقوف على باب منزلها، متطلعة إليه بشوق واضح،

وسعادة طاغية، فيسترق النظر الى وجهها، يسمعها عبارات غزلية مستترة، حتى تولّي ممتلئة بسكرات الحب وطعم حشرجاته.

ثم جاء اليوم الذي سارع فيه إلى أمه، مفصحاً عن رغبته في الاقتران بفتاة أحلامه سلمى. تلاشت الابتسامة من على وجه أمه، وظهرت مكانها شرارة الغضب. رأى أسارير وجهها تتيبس للحظة، وانطلقت قذيفة من فمها، كأنها تنطلق من فم مدفع. اصابته كلماتها في الصميم. جاء رفضها مرتبطاً بسمعة أم سلمى، المشكوك بعفتها، والتي حيكت حولها أقوال غريبة، فلاكت الألسن سيرتها بأمور مثيرة.

تنهد علي بحرقة. كان لموقف أمه الصادم والعدواني من عائلة سلمى، أكبر الأثر في نفسه. استحضر وجه جارتهم العقربة أم سيد، التي نشرت أثناء إحدى جلسات النميمة المعتادة، أن أم سلمى تراود الرجال عن أنفسهم، مؤكدة أن سلمى ولدت كثمرة محرمة من إحدى تلك العلاقات الآثمة.

تحسس علي ظهره المتعب، من أثر الاستناد إلى الجدار. أخرج زفرةً حارة كأنها خرجت تواً من فرن يغلي. عاودته غصّات الشقاء. تذّكر أمه ونصائحها المجانية، مع فرض إرادتها وتأكيد قدراتها، وهي تهندم بدلته العسكرية على جسمه، وتحكم إغلاق أزرارها. كالت المدائح لابنة عمه مطر، مضيفة أنها خصّصت لهذه المناسبة، ثوباً جديداً يرقد في خزانتها، منذ سنين.

ذات ليلة، طرح علي على سلمى فكرة الهروب من الحارة،

ثم الزواج سراً. تلعثمت سلمى، رفضت فكرته ثم أسمعته بدلال العذراوات، كلاماً من ذهب وعتب، الى أن دخلت غرفتها، وبكت بحرقة وهي تدفن وجهها في الفراش.

ازداد اللغط في الحارة، وبدأ محيطهما في التساؤل عن علاقتهما. راود أم سلمى خوف كارثي، صاحبه شعور باقتراب خطر ما، فنهتها عن مقابلة علي، بالسر أو العلن، ووضعت بينهما موانع كثيرة وجدراناً متباعدة.

وحين هدد الموت بقبض روح أم سلمى، وهيأ جسدها أركانه للرحيل، قررت الخلاص من سلمى، وتزويجها على عجل، أملاً في الخلاص منها ومن جموحها وتماديها في علاقه قد تسفر عن حمل، خارج إطار الزواج.

وافق ابن خالة سلمى على الزواج بها، إخلاصاً منه لأعراف القبيلة وتقاليدها، وأدركت سلمى أنها قد بلغت مع علي، نهاية السعي. غمر علي علوان شعور موجع، وأحسّ بطعنة تخترق صدره، فانقطع عن رؤيتها دفعة واحده، وبشكل حاد، مبرراً تصرفه هذا بكونه يرغب في الحفاظ على بقايا رونق ذكرى هنائهما القصير. ثم سرعان ما كفر بالحب نفسه، بعدما خطت سلمى فوق قلبه، فسحقته، فقرر البقاء عازباً، عازفاً عن الزواج، مؤثراً الملاكمة عليه. أخلص لتمارينه وأبدع فيها، حتى تدرج في الابداع وأضحى من عمالقة اللعبة في البلد.

نشأ بين سلمى وزوجها، جفاء صامت يعلم كلاهما مبعثه. كان

زوجها عاجزاً عن نيلها، فرفضته منذ الليلة الأولى. افترقا، بعدما جعلت منها الشائعات، غير صالحة للحياة الآمنة، الهادئة، المشرقة. وفي الحارة التي جمعت التناقضات، تكالبت نظرات الرجال عليها. حاصرتها وجوه كئيبة، صلدة، صامتة، مليئة بالتجاعيد. بار سوقها في الزواج مرة أخرى، بعدما تعامل الجميع معها باستعلاء أخلاقي ذكوري، فتأصلت في داخلها فكرة واحدة، أن البشر كلهم انتهازيون، يريدون ابتزازها.

في أحد الصباحات، بعد عدة أشهر من زواج سلمى، ماتت أمها. تمرّدت كليتاها وأعلنتا الإضراب عن الحياة. لم يبك عليها أحد سوى ابنيها، وكان حضوراً هزيلاً للأهالي خلف موكبها الجنائزي. اقتصر الدفن على عمال المقبرة، والحاج علوان، وعلي وابنها حامد الذي أبقى الغطاء الذي يلفون به النعش كذكرى أليمة. تابع علي مع صديقه حامد، كل مراسم الدفن، مدخراً بعض دموعه للجنازة. اقترب من الجثمان، محاولاً رسم الحزن المناسب للموقف، إلا أن شيئاً وقف كالطود العظيم أمامه، وأمره برشف دمعة كان على وشك ذرفها. ظلّ مجلس العزاء قائماً عدة أيام. لم يحضر سوى قله من الأهالي، بعدما تناقلوا خبر الوفاة. كان هناك أيضاً زملاء العمل، الذين حضروا بانفعال ظاهر، مطأطئي الرؤوس، محاولين تهدئة حامد، بكلمات تناثرت من أفواههم دون انتظام.

مسح علي عرقاً تصبّب من جبينه، وفي لحظة يأس مفرط، تمنى،

وأسرف في التمني، أن تحدث المعجزة وينفتح باب زنزانته ويخرج. أطبق ضيق هائل على صدره وراوده شعور مرارة الانتظار في هذا المحشر. وفي محاولة منه للتصالح مع الله، ومع ذاته، تمتم بآيات تخفّف عنه الهم قليلاً، وتبعد القلق خطوات صغيرة. أحاطت به غمامة الخشوع، وغمرته السكينة، فدعا بإيمان من لم يقدم على الصلاة منذ مدة. قضى بقية نهاره في رتابة وهدوء مفرطين، مغلقاً الأبواب في وجه ذكريات عنيدة، حتى ترامى إلى سمعه حفيف أقدام ثقيلة، زاحفة، تنبئ عن قدوم الحارس. أصاخ السمع في الظلام، حتى انزاح باب الزنزانة، فاستكانت نفسه. تمثّل له الحارس عبر الظلام بشراً سوياً، محدّقاً، مستطلعاً، أمسك بساعده بهمة عالية، صارخاً: هيا انهض.

نهض علي علوان، فاركاً عينيه، محاولاً لملمة أجزاء تراخت من جسده. أحس بتعب السجن، وشدّ عضلي يتسلل إلى ساقيه. خرج من قمقمه، متثاقلاً يجر ساقيه الحافيتين جراً، انتعل حذاءه، متابعاً سيره، ببرودة رجل يمشي للمرة الألف في جنازة.

أخذ علي علوان يقطع الممر ببطء، ساعياً إلى مدّ اللحظة، ثم أدار نظره بفضول، باتجاه زنزانة جاره. لمح وجه سجين الزنزانة، أخيراً تلاقت أعينهما في حوار صامت، قبل أن يشرع بدندنة أغنية مبهمة الكلمات. جفل فجأة من قبضة خشنة هبطت على كتفه، ودفعته إلى الأمام، فأكمل سيره، متقدّماً الحارس، جائلاً بنظره في الأرجاء.

★

سكون الظهيرة، يطبق على المضارب الهاجعة، لا يخدشه سوى أزيز رياح تحرك الرمال حيثما تشاء. أصوات قطط تتصارع على فضلات تناثرت من حاوية قمامة. في أرجاء السجن، أسلاك شائكة. أشجار مسلّحة بأشواك وأغصان طائشة. أعمدة كهربائية رُشقت متباعدة على أرض حصباء، ممتدة على مد النظر. خزان حديدي أسطواني الشكل، يرتفع عالياً على أربعة أعمدة فولاذية، وطيور تمرّ بين الحين والحين، كأن الحزن شملها أيضاً.

مشى على هون، وسط عرصات صيف أعلن سلطته وسطوته. هواء حار متقطع يلمس بشرة وجهه. التفت الى يمينه، فرأى تجمعات هزيلة لمساجين تعلقت به أبصارهم، وجوهاً أضناها الشقاء امتلأت بها أحشاء الزنازين، وحراساً تلوح على وجوههم قتامة، يختبرون بنادقهم سريعة الطلقات. رأى آخرين يجوبون الأرجاء وراء أسلاك وأسيجة، صامتين، محدقين إليه دون أن يكلموه أو يكلمهم. وعلى الرغم من أن السجن استقطب وجوهاً مطموسة الملامح، مجهولة الهوية، إلا أن علي لمح بينهم الرفيق الذي منحه سيجارة، قبل حبسه في الانفرادي!

حدّق فيه رافعاً يده بالتحية، حتى يراه، فنظر إليه الرفيق بعينين تتراقصان فرحاً، وبادله التحية بأخرى عسكرية، ترافقها ابتسامة ارتسمت جلية على شفتيه.

ألقى السجان المتجهم دائماً، قبضته الخشنة على كتف علي، ممارساً معه إبداع القسوة، صائحاً به بفاصل من الشتائم والوعيد. تابعاً السير على اسفلت الشارع المترب، باتجاه مبنى قديم البناء، ينزوي خلف مباني إدارة السجن، ويفصل بينها سلك شائك. وقبل بلوغه الباب المفضي إلى ردهة الاستقبال، سمع علي وهو يرقى الدرجات الخمس، صوت تلفزيون تنبعث منه أغنية تصدح في بهو العيادة. لكن يداً ما لبثت أن عبثت بجهاز الريموت كنترول، وأغلقت التلفزيون.

مع دخوله البهو، أحس علي بشيء من التوتر، واعتراه خوف لا تخطئه عين. فها هو في عيادة غارقة في التعاسة، تشبه أي شيء عدا كونها عيادة! الأرضية متسخة زيّنت بحجارة متكسّرة، سوداء وبيضاء على شكل رقعة شطرنج بشعة، والجدران متشققة خضبت حواشيها بأصباغ على غير اتساق، والكراسي مهترئة يغلفها الغبار. هناك غرفة للطبيب العام، وأخرى للممرض، وغرفة انتظار يلتصق بها مخزن صغير هي صيدلية تسرح داخلها الفئران.

استقبله ممرض آسيوي، بعينين واسعتين، مائلتين، ووثب الحارس نحو طاولة عليها دفتر كبير، وراح يملأ استمارة المراجعة، بينما اقتاد الممرض علي علوان. دعاه إلى أخذ حرارته فامتثل، أمره

بالجلوس في غرفة الانتظار فجلس، وطلب منه بلطف الانتظار فانتظر. مرّت دقائق قبل أن يأمره الممرض بالدخول إلى مكتب الطبيب المناوب.

من خلف مكتبه، انتصب الطبيب لاستقباله مرحباً، ومصافحاً. ربت على يده بمودة، مشيراً إلى كرسي قبالة المكتب، طالباً منه بكل أدب، الجلوس. وقف علي لثوان، أمام يدي الطبيب، متهدم البنيان، محني الظهر، يلوح على وجهه شقاء الليالي السابقة، ثم سحب الكرسي حيث دفن قامته، ممدداً ساقيه معاً. ساد الهدوء لثوان تبيّن علي خلالها وجه الدكتور، شاباً، حليقاً، أبيض البشرة، شديد التأنق، مصفف الشعر بعناية، يرتدي بالطو أبيض تحته قميص أسود وربطة عنق حمراء. بابتسامته المشرقة، وبعينين يشعّ منهما الهدوء والذكاء خلف نظارته الطبية، أخذ الدكتور يتأمل وجه السجين. لاحظ عدة انتفاخات صغيرة عند صدغيه، كدمات زرقاء، وبثور الجدري. قال الدكتور في وقار مخيف:

- سلامات يا رقيب علي.

تنحنح علي معتدلاً في جلسته، ثم رد بصوت حاول أن يكون طبيعياً:

- الله يسلمك يا دكتور...

كان الدكتور شديد اللباقة، عصري المفردات، محملقاً في عينيه مباشرة، كأنه يحاول تنويمه مغناطيسياً. بدأ بالتعريف عن نفسه:

- أنا الدكتور شريف. أخبرني النقيب خليل بموضوعك. تعاونك معي سيسهل علي المهمة. عليك فقط الإجابة عن بعض الأسئلة.

أومأ علي برأسه موافقاً.

- كيف تشعر الآن يا علي؟ سأله الدكتور.

- المدللة، مازلت أعيش العقوبة التي يفرضونها عليّ، رد علي والحزن يغلب على صوته.

تطلع كل منهما إلى الآخر، ثم اضطرا إلى الابتسام. سأل الدكتور وهو ينتصب بجذعه في مقعده، ملقياً رأسه على المسند:

- هل أتعبك الجدري!

سكت علي لحظة، ثم ردّ بلهجه جافة:

- نعم، كثيراً.

وقف الدكتور شريف وطلب من علي خلع ملابسه، والتمدد على سرير الفحص الطبي الأبيض. امتثل علي، ملقياً نظره سريعة على التلفاز الحديث في الغرفة البائسة التي طليت جدرانها بلون أبيض مشوب باخضرار خفيف. خلع ملابسه، مبقياً على سرواله الداخلي، وتمدّد على السرير كفرع شجرة اجتثت من مكانها.

اقترب الدكتور شريف وهو يحكم إغلاق أزرار البالطو، ووقف فوق الجسد الممدد. أضاء مصباحاً زاعق الضوء، ملتحماً برأس السرير، وراح يجول بآلته الحساسة على صدر وبطن مريضه. تحسست يده

الخبيرة المتمرسة، أماكن أخرى حيث الكدمات الزرقاء الموقّعة بالدم والممزوجة ببثور الجدري، وساق بها جرح من إصابة برصاصة. بعد ذلك، طوى الطبيب سماعته، سائلاً علي بهدوء وهو يعود إلى كرسيه، عن الإصابة في ساقه! رد علي وهو يعتدل لارتداء ملابسه: إصابة قديمة يا دكتور. تطلع اليه الأخير مستفسراً: هل تستطيع شرح ما جرى! فأكمل علي حديثه، بينما كان يرتدي ما تبقى من ملابس: كان حادثاً لم يتعدَّ، حسب ميثاق وعرف العسكر، حدود الخطأ! مال الدكتور شريف بجذعه إلى الأمام متسائلاً:

- يتضح لي أنها إصابة رصاصة، هل عانيت كثيراً جراء الإصابة!

رفع علي بنطلونه، وتنهّد وهو يتقدم باتجاه الكرسي: نعم... تعبت كثيراً يا دكتور، خاصة بعد عملية استخراج الرصاصة. لقد ارتديت جهاز تقويم معدنياً، احتوى ساقي، لكي يساعدني على المشي.

رفع علي بصره إلى سقف الغرفة عندما استحضرت ذاكرته فترة العلاج الطبيعي الذي استمر قرابة ستة أشهر، وكيف كان يمشي أثناءها، إما معتمداً على سواعد الآخرين، مسنوداً على اكتافهم، أو محمولاً فوق مقعد متحرك مدفوعاً من الخلف. ثم روى كيف أهمل علاج جرحه الغائر حتى تأخّر التئامه وشفاؤه، وكيف ظل يمشي مدة عام وهو يحجل كالغراب، على ساقه العرجاء.

سأل الدكتور شريف: متى عدت من الحرب يا علي! فسكت علي علوان برهة، ورد بشيء من الحزن: تقريباً منذ عام ونصف.

- هل تنام جيداً في المساء؟
- أنام بشكل متقطع.
- هل تراودك كوابيس؟
- كثيراً يا دكتور، لا أكف عن التفكير في الحرب.
- الغارات الجوية حسمت المعركة يا علي.

لم ترق لعلي كلمات الدكتور شريف، فانتفض معتدلاً بحدة على كرسيّه، ملوّحاً بيده: هراء، غير صحيح يا دكتور، غير صحيح. لقد شاركت مع القوات على الأرض، تعرضت للموت عدة مرات.

سكت علي، لم يشأ أن يجعل الدكتور شاهداً على فجائعه وخيباته، مقرراً عدم إقحامه في مأساته، حتى لا يعطيها بعداً وطابعاً عاماً، مفضّلاً أن يكتمها حبيسة داخل ذاكرته. «أنت لا تعرف ما هي الحرب، أيها الطبيب، متى هبّت، تحوّل الجنود إلى وحوش متعطشة للدماء»، همس علي، فقاطعه صوت الدكتور شريف الحاد: علي! تطلّع إليه علي في ضيق، فاتكأ الدكتور برسغيه على المكتب، ثم اعتدل وفتح أحد أدراج مكتبه، مستخرجاً علبة سجائر. مدّ يده بسيجاره إلى علي، وطلب من الممرض إحضار فنجان شاي.

عقد الدكتور شريف ذراعيه على صدره، وقال بنبرة أكثر ليناً ماذا حصل هناك يا علي، اخبرني!

حوّل السؤال علي إلى كتله من القلق، راحت تتوالى في تجاويف رأسه صور لا رابط بينها، متداخلة، فوضوية، عشوائية.

- ما الذي تريد معرفته يا دكتور!

- أبداً، لا شيء معيناً. مثلاً ما أصعب موقف واجهته هناك!

أطرق علي علوان لحظة، ثم بدأ يسرد تجربته.

في إحدى المرات، تقدمنا بحاملات جنود وشاحنات غُطت بالشوادر والتمويه، إلى إحدى المدن العراقية الحدودية، تسبقنا دوريات استطلاع تجوب متاهات المدينة. فرضنا على أهلها حظر التجول وعزلة قسرية. كانت الشوارع فارغة في الليل، إلا من قط أو كلب لا يعرفان القوانين المفروضة. بعدها بيومين، صدح منادٍ في طرقات المدينة، بضرورة الخروج في مظاهرة. حذّرتنا القيادة من احتمال حدوث أعمال عنف وتخريب، وتوجب علينا الاستعداد لمواجهه أي تهديد قد يأتي من أي طرف ولأي سبب. كان خوفنا من فدائيي صدام، القنابل الموقوتة التي تسير على أقدام والقابلة للانفجار في أية لحظة. تواترت أنباء من دوريات الاستطلاع، عن وجود نشاط مريب وواسع، تجمعات لأعداد غفيرة تتدافع بالمناكب، خلق كُثر، كأنه يوم الحشر، خرجوا في مظاهرة ارتفع لغطها وعلا صوتها.

دخل الممرض بكوب شاي وضعه قبالة علي الذي رشف من الكوب وهو يسلط عينيه على الدكتور شريف.

- نشرنا أسلاكاً شائكة لمنع شرور الكائنات العدائية. سرت همهمات أن أحد الفدائيين اقتحم حاجزاً البارحة، بصدره المشرّع للرصاص، فاسحاً المجال من خلفه لكتيبة كاملة للاقتحام. احتار

قادتنا الميدانيون في كيفية صد متظاهرين يندسّ بينهم أصحاب مكر ومراوغة. كان ذعرنا بأن يكون الفدائيون قد لغّموا الكلاب، بعد أن درّبوها بأساليب بافلوف، في الاستجابة الشرطية، وأن يدفعوا بها إلى مهاجمتنا، أو مهاجمة دباباتنا وعرباتنا.

توقف علي لينفض رماد سيجارته الذي وقع على بنطاله، ارتشف قليلاً من الشاي، وتابع يقول:

– تراصفنا لسماع تعليمات قائدنا المباشر، الرائد صلاح. كانت كل الاحتمالات مفتوحة، من وجهة نظره. أسلم بعدها قيادتنا إلى السيرجنت الأمريكي، بينما غادر هو ميدان المواجهة، تاركاً لنا ظهره والحيرة، الخوف والصمت. حمل السكان سكاكينهم وهراواتهم، تسلق غلمان المارينز سطوح الأبنية، وتوارت النساء خلف منعطفات الدروب. وقفنا كحائط صد لمنع المظاهرة من التقدم. كان المشهد ينذر بالسوء. أرعدت الأرض في الأفق الغامض، بمجنزرات تطلق ذيولاً سوداء من الدخان، يتبعها ضجيج هياج طائرات الأباتشي. تسارعت الأحداث كأنها تتعجل الزمن. صدح الأهالي بهتافات وأهازيج، شعارات وأناشيد، شقّت جحافل الغضب طريقها، عبر الشارع الرئيسي للمدينة، الذي أضحى رمادياً يكسوه التراب والحصى. كان يقود المظاهرة رجل يحمل جرحاً غائراً، ممتداً تحت عينه اليسرى، شاهراً مسدسه النحاسي. قست وجوه الأهالي، طاردونا بحدقات غاضبة ناقمة، كأن لكل منهم، حقده الخاص وثأره الشخصي. التفّ حولنا

فتيان وفتيات، نصف عقلاء، مجهدون، صفر الوجوه، حفاة، يرموننا بالحصى وأعواد الحطب الجافة. فارق السيرجنت الأمريكي، هدوءه العريق، فاندفع يمشي مشية خبير بالمكان، يختبر الأسلحة بنفسه ملقياً تعليماته في وجوهنا، بواسطة مترجم يتكلم عربية ركيكة. صاح السيرجنت بما يمكن ترجمته: إن المظاهرة خطر وجودي، لا مجال للتسامح معها. ثم طالب كلاً منا أن يلزم مكانه، وأن نضع في اعتبارنا أن القتل صار من مفردات اللعبة، مضيفاً حماساً إلى حماسنا، صارخاً: إن كانت هذه النهاية، فلنمت أبطالاً...

كنت أقف بجانب حامد، أيدينا على الزناد، ننتظر تنفيذ أوامر لا تراجع عنها. أملاً في احتواء الموقف، وحصر المظاهرة مع امتصاص نقمة الغاضبين، بدأت مفاوضات عبر مكبرات الصوت، إلا أنها آلت في النهاية إلى السقوط. ضراوة المظاهرة فرضت علينا الانسحاب، إيثاراً للسلامة. لكن، تقدم المتظاهرون، ساعين لاختراق الطوق الأمني. كان هناك مندسون. بوغتنا برصاصة موت طاشت في الفراغ، امتصها الهواء الممتلئ غباراً. سمعنا بعدها أزيز رصاص واطلاق نار متقطعاً. تلبّد وجه السيرجنت بغيوم الغضب، أمر بإطلاق الغاز المسيل للدموع. تفككت صفوف المتظاهرين، راحوا يلتصقون بالجدران القريبة، ثم عادت أمواجهم البشرية للتجمع مجدداً. خلع السيرجنت قميصه، مبقياً على صدره واقي الرصاص. بدا مسدسه معلقاً في جراب مثبت بحزام بنطاله. بدت العدوانية على ملامحه، زعق صارخاً : استعدوا.

ثم، بسرعة البرق، استلّ مسدسه ولقّمه. جاء منه الأمر مباشرة: أطلقوا فوق رؤوس المتظاهرين، لا تقتلوا أحداً... حينذاك...

توقف علي وهو ينظر ملياً في وجه الدكتور شريف بعينين رطبتين، طأطأ رأسه وطوّقه بيديه، تدافعت الأفكار إلى ذهنه، فأكمل:

– كانت روح الشباب الوثابة، أقوى من نداء التعقل. اندفعت أعيرة بنادقنا. بادلنا المتظاهرون بالمثل. انفضّت الجموع وتفرّقت الغوغاء. ما هي الا دقائق، حتى عادت جمهرة من الأطفال الغاضبين، ترشقنا بالحجارة. أصابت رصاصة طائشة أحدهم فسقط مضرجاً بدمائه. من بين الحشود، جاءت أمه تلتقطه، من دون أن ترفع رأسها المنكس. مزقتها رصاصات مجهولة، فانبثقت الدماء من رأسها وأطرافها. انتشرت جثث القتلى، من الطرفين، في كل مكان. هالني منظر عجوز، عجفاء، محطمة، مرتعشة الأوصال، هزت صرختها أركان المكان، وتقاصرت أنفاسها. كان حزنها على مشهد مقتل ابنتها، أكبر من دموعها. بدت في حالة فزع مطلق، صرخت بلا صوت، بكت بلا دموع، واصلت نحيبها الصامت، وهي تشد شعرها، وتمرغ وجهها المتقلص بالتراب. لم يحتمل قلبها هول ما رأت، انسحب البريق للأبد من عينيها، وماتت من رعبها...

ثم صمت علي علوان.

طيلة الجلسة، شعر الدكتور شريف بأن علي يتصارع مع شيء داخله. قال وهو يغرس سيجارته في منفضة أمامه: أكمل يا علي،

من فضلك، أكمل. تنهد علي ملء رئتيه، مسح دموعه، ثم تابع سرد حكايته، كمن يحاكي نفسه:

– تفرّق المتظاهرون على وعد بالتجمع، في اليوم التالي، في الوقت والمكان نفسيهما. فجأة، فقد حامد اتزانه. انهالت عليه أيادي زملائه تردعه بقسوة، بعد أن وجه فوهة بندقيته صوبهم! ارتميت على بندقيته وجذبتها بقوة، فكدت أخلع كتفه. أغمي عليه في الحال. بلّلنا وجهه بالماء، فأفاق من غيبوبته والفجيعة ترتج في عينيه. كان منكمشاً كالقنفذ، لم يقوَ على رفع رأسه أو النظر إلينا. نقلناه إلى المشفى الميداني. بدا حامد هائماً، يلوذ بنفسه في السرير، متكوراً داخل خوفه، متحايلاً على وحدته، بالثرثرة، قائداً حواراً دسماً، مليئاً بأسئلة صعبة، ثم واثباً من مضجعه، يتفجر من عينيه بريق ذعر.

هز علي علوان رأسه بعنف، كي يطرد عن رأسه الحكاية، فسأله الدكتور شريف: علي، من يكون حامد هذا وما علاقتك به؟

– إنه صديقي، بل أخي.

– هل مات في الحرب؟

– لا لم يمت، لكنه سقط فريسة جنون مطبق، فصار يناجي أشباح ماضيه، دون أن يراها، يصرخ على حين غرة، محذراً من الأعداء الذين يملؤون المكان.

– كيف ذلك، ماذا تعني؟

– لقد دخلنا العسكرية معاً. وجدنا وعداً من عمي مطر

بالخلاص من التشرد، والهزيمة والاقتلاع والاحباط والانكار. كان حامد مرهف الاحساس. تغلغلت فيه منذ طفولته، الطيبة والسذاجة، نمتا مع نمو جسده وعقله، حتى أصبحتا لا تنفصلان عن كيانه. دائماً ما تحصنه أمه بالكتب والحجب والتمائم، فهو ذخيرتها من دنياها. بعد صدمة المظاهرة، بدا جسده أكثر ضآلة. عزف عن الكلام، وكان يظل صامتاً لأيام عدة. ثم تهز صرخاته الهستيرية المكان، متحولاً في دقائق إلى مسخ غريب كأن مساً جنونياً أصابه، ملقياً أحياناً بجملة كأنها حجر وقع في بركة، وهو يتلفت يميناً وشمالاً: انهم يطاردونني. يريدون تصفيتي. وحين أسأله: من هم! يجيب بصوت مرتعش، وهو يضرب فخذه براحة يده مرات عدة: القناصة، ألا تراهم! أصبح القناصة، بالنسبة اليه، كالأشباح، موجودين في كل مكان، في كل مكتب وكل خيمة وكل ميدان. انعزل عن الجميع، حتى عن تأدية مهامه القتالية، خانه الانضباط فانقض على أحد الضباط للفتك به، إلا أننا أفلتناه بصعوبة. وخلال دقائق، كان مرتدياً مريولاً أبيض، ويقتاده أناس عقلاء إلى مركز العلاج حيث وجد له الأطباء العذر لمغادرة المعسكر. نقلوه في حوامة، من المشفى الميداني إلى البلد، بعد أن وصل إلى مرحلة متأخرة من منطق طبي خالص.

عادت عينا علي علوان تتصفحان سقف الغرفة. شعر بحلقه يجف، فأشار إلى الدكتور شريف بعطشه. جاء الممرض بإبريق ماء على الفور،

واضعاً إياه فوق المكتب. رفع علي الابريق إلى فمه، مستشعراً لذة الماء في هذا الجو الحار، ولم يضعه أمامه إلا فارغاً. مرّت فتره صمت، تبعها سؤال من الدكتور شريف: هل زرته بعد عودتك من الحرب؟ زفر علي دخان سيجارته في ضيق، ثم رد بعصبية:

– نعم زرته. كان مقيماً في مصحة المجهدين عقلياً، تحديداً في عنبر العزل. الى جانب سريره، يقف حامل معدني معلقة به زجاجة مصل تسيل بقطرات الدواء إلى وريده. كان شعره قد طال، وعيناه قد غارتا وهما تحملان معاني من الصعب ادراكها. بدا في غاية الانهاك، كأنه يناضل ليمحو أي أثر للحرب، أو كمن يريد التخلص من عذاب باطني. لكنه ما أن رآني حتى ابتسم ابتسامة صفراء، رافعاً حاجبيه مستغرباً. فتح ذراعيه لاحتضاني، ثم أجلسني بجواره، ينظر إليّ ويخاطب روحه الهائمة، المتجولة بين أشلاء القتلى، وهو ينشج ويبتسم. سألني بصوت مليء بالخذلان والانهزام:

– كيف انتهت الحرب يا علي!

– لقد انتصرنا يا حامد، انتصرنا.

ضحك حامد كأنه بضحكته يريد أن يخرج نفسه من حالة الشفقة التي كان يبغضها من أي شخص كان.

– لا بل قل خسرنا... لا منتصر في الحرب يا علي، لا منتصر.

ركنت إلى الصمت وقد عجزت عن الرد. انثال دمعه بصمت، وبلا توقف. أمسك بيدي، ومضى في همسه، كأنه يحاور شخصاً لصيقاً

بباطنه، لا يراه أحد سواه. حالة غريبة مباغتة سيطرت عليه، فانقلبت ملامحه كأنه يتصارع مع شيء في داخله، حتى سقط فريسة نوبة شرسة، فخرجت كتل خاثرة بيضاء، متفاوتة الحجم، سائلة على شدقه.

★

اعتلى النقيب خليل درج مبنى العيادة القديم، بعجل وعزم. دلف بثقة، مستغلاً وميض الرتبة الذي يحيط به، فاعتدل الحارس، مستقبلاً إياه بتحية تليق برتبته. مضى خليل متبختراً بخيلاء، متجاهلاً تحية الحارس، موحياً بفوقية تظهر تسلطه. هرع إليه الممرض، فسأله خليل عن السجين علي، فأجاب أنه مع الدكتور شريف في الحجرة، داعياً إياه إلى الانتظار في الغرفة.

خلع خليل الكاب، آمراً بصوت جرحته السجائر التي لا تفارق فمه: هات منفضة السجائر... هات شاياً، وجلس في الحيز الضيق، على كرسي بلاستيكي، ترتسم على وجهه تعابير لا مبالاة وإحساس بسلطة لا حدود لها. اخرج من جيب قميصه سيجارة روثمان لاذعة، أشعلها، ومجّ بإخلاص عجيب، مطلقاً دخانها من فتحتي أنفه، متلفّتاً حوله كأنه يبحث عن شيء يقتل به وقته ويزيح عن كاهله عناء الانتظار. التقط مجلة طبية، من فوق الطاولة المتهالكة، وأخذ يتصفح أوراقها في ضجر، ردحاً من الزمن. أحضر الممرض قدح الشاي، وهو يرمقه بزاوية عينيه الضيقتين، ثم التفت إلى الباب من حيث خرج علي علوان

متجهاً إلى بهو العيادة. وقع بصر علي على خليل، لم يتوقع وجودة إطلاقاً في هذا المكان. تطلع إليه بعينين مذهولتين وهو يصيح به: مستحيل.. خليل!

وضع خليل قدح الشاي والمجلة التي كان يطالعها على الطاولة، وهو يأخذ نفساً من سيجارته، قبل أن يغرزها في المنفضة، ثم نهض واتجه نحو صديقه، مبتسماً قبل أن يصافحه. لاحظ القلق على محيا علي، فسأله منفعلاً: خير.. ما بك! ثم أمسك به من كُم قميصه، جاذباً إياه إلى غرفة الانتظار.

جلسا متقابلين. حكى له علي مقتطفات مما دار بينه وبين الدكتور شريف، صمت خليل كمن يزن الأمور، وبدا عليه عدم الارتياح، ثم طلب منه الانتظار، ريثما يتحدث مع الطبيب.

طرق خليل باب الغرفة، فجاءه الصوت من الداخل بإذن الدخول. دلف بقامته الفارهة وخطوه المعتد بذاته. كان الدكتور شريف منهمكاً في كتابة تقرير، توقف عن الكتابة ناظراً نحوه عبر زجاج نظارته. ألقى عليه خليل التحية، ثم جذب أقرب كرسي وجلس مواجهاً له. امتدت يده إلى علبة سجائر ملقاة فوق المكتب، استل منها سيجارة، أشعلها ودخنها بشراهة، سائلاً عن تشخيص الطبيب في الموضوع! رد الدكتور شريف، بحياد الأطباء، وهو يدفع ظهره إلى الوراء:

- تشخيصي المبدئي يؤكد أن الحرب أتلفت نفسه. زميلك الرقيب علي يعاني من شعور الذنب بسبب مرض صديقه حامد،

ومازالت تلسعه سياط بقايا تأنيب ضمير. هناك يا سيادة النقيب، مشيئة أقوى من إرادته تقوده حالياً. في الحقيقة، هو بحاجة إلى سند اجتماعي، وجلسات متخصصة في الإرشاد النفسي، مع علاج اضطرابات ما بعد الحرب.

لم يعقب خليل، فأكمل الدكتور شريف حديثه:

- إضافة إلى صدمة الحرب، فإن ما ذكرته لي عن نشأته في العوز وسلوك والده الاستبدادي كان له أسوأ الأثر على نفسيته.

أخذ خليل نفساً عميقاً من سيجارته، ثم استأذن الدكتور شريف التحدث مع علي علوان في حجرته، على انفراد. قال الدكتور مستدركاً قبل أن يغادر الغرفة، إن عافية علي ستزهق في ثنايا الحبس، إذا لم يتناول كورس علاج للجدري.

استدعى الممرّض علي علوان الذي دخل الحجرة، وجلس مقابلاً لصديقه خليل. تقدم منه الدكتور شريف، طالباً منه نزع قميصه، ثم أتى بحقنة غرزها في أعلى ذراعه اليسرى. ألقمه الممرّض بعض الأقراص البيضاء، مع كوب ماء.

بعد أن غادر الدكتور شريف، تاركاً الحجرة للصديقين، سأله خليل: ماذا يا علي، لماذا كل هذه المشاكل، ما الذي أوصلك إلى هذا الحال؟ فارتسمت على محيا علي علامات أسى وقلق، جهد لعدم إظهارها.

- حظي السيئ يا خليل، حظي يسوقني من هاوية إلى أخرى.

ولكن أنت، كيف حصلت على رتبة نقيب! لم أتوقع أن تنضم إلى سلك العسكرية أبداً، يا خليل!

انسكب الحديث بتلقائية من فم خليل، فأخذ يسرد حكاية أقرب إلى الخيال. كيف أن مصدر العز الذي يعيشه منبعه أخوه عامر الذي ابتسم له الحظ، بعد زواجه، فقد ورث عن والد زوجته، ثروته وعقاراته ومرض النقرس. طفق خليل يحكي كيف عاشت أسرته في ضاحية لا تعرف سوى رائحة الزهور. أخبره كيف سافر عامر مع زوجته إلى أعالي البحار، لتحقيق أمنية المرحوم أبيها، في شراء شهادة جامعية لكي يسبق اسمها حرف الدال، في حين أجبر عامر خليل على إكمال دراسته في الفترة المسائية، مستغلاً علاقاته بعد انهائه الثانوية، لإلحاقه بالكلية الحربية.

تبدّت في صوت خليل، وهو يشرح مسار حياته، نبرة حزينة حين عرّج على انتقال والده إلى عالم الأموات قبل سنوات ثلاث، بعدما انثالت على جسده الأمراض، آلام المفاصل في عظامه، أوجاع الحصى في كليتيه، وتعاظم الضغط في أوردته.

صمت خليل مستفهماً عن أحوال أهل صديقه، فأخبره علي أن مرض الحاج نهائي لا يمكن شفاؤه، وأنه يمضي مع أم علي شيخوخة مستحقة، ينهشهما المرض والعزلة، ويعذبهما إصرار ابنهما على بقائه عازباً، بعد أن اغتصبا منه قرار الزواج.

سأل خليل عن حامد و جسار، فأجاب علي سؤاله بسؤال، مغيراً

الموضوع ليبعد شبح الذكرى السيئة عن مخيلته: هل تزوجت من إحدى ملكات جمال العالم، كما كنت تتمنى يا خليل؟ أخذ خليل نفساً عميقاً، ثم شرح لصديقه كيف تزوج من فتاة، ولم يُعلم أحداً كيف أو أين أو متى التقاها. المهم أنه تزوج، لكن الأهم من المهم، أنه يتعالج بحثاً عن الذرية بعد أن عاقبه الله بقطع النسل. جميع نتائج تحاليله تؤكد أنه قليل الأمل في الإنجاب لضعف في الأمشاج!

كانت المفاجأة لعلي علوان، من العيار الثقيل. خليل الشاب الفحل، صاحب المثانة القوية، المتقلّب في محاريب الجنس والنساء، يبحث عن الذرية! سأله خليل للمرة الثانية، عن حامد، وجسار! فأجابه وهو يشعل سيجاره:

– حامد الآن في منزله، بعد عودته من الجبهة ومكوثه في مشفى الأمراض النفسية لعدة أشهر. لجنة الأطباء أجمعت أنه تجاوز الكارثة، تحرر من كونه إنساناً واحداً بشخصيتين مختلفتين. أخته سلمى تقول إنه بدأ يعيد صلته بالناس والأشياء من حوله.

عقدت الدهشة لسان خليل للحظات. أفاق متسائلاً في ذهول: سلمى! هل مازلت على علاقة معها! ضحك علي علوان رغم احساسه بالأسى، وأجاب: لا كرامة مع الحب يا خليل، لقد تزوجت سلمى، وطُلقت بعد أقل من عام. بالنسبة إلى جسار، فقد تزوج، أرخى العنان لموهبته الانتاجية، حتى ملأ البيت بالبنين والبنات.

نظر علي إلى خليل في انكسار، متسائلاً: سيتعافى حامد يا خليل،

أليس كذلك، سيتعافى! فأجابه خليل مراوغاً وضاحكاً على سبيل الدعابة:

- هل ما زلت تذكر رحلتنا إلى العاصمة! هل تذكر ذلك المساء، وكيف عرفنا طريقنا إلى البار والنساء!

أخذ الصديقان يسترجعان أحداث تلك الليلة، ويستعيدان ترتيب مشاهدها. في لحظة حماس شبابية، قرر خليل الذهاب إلى العاصمة والمبيت فيها ليلة. وكعادته كان لا يمهد لقراراته، فأقنع أصدقاءه الثلاثة بمرافقته، وأقنع الأصدقاء أهاليهم.

أظهر خليل جوداً وسخاءً، في الإنفاق على أصدقائه. قام بحجز غرفة في أحد الفنادق الخالية من النجوم، ثم أقنعهم عن طيب مكر، بالبحث عن مغامرة مثيرة يقضون فيها ليلتهم، مقرراً اصطحابهم إلى مخابئ العشاق لاختبار فحولتهم، واكتشاف ذاتهم، وتجربة ليلة دخلة قد لا يملكون عدتها الضرورية. أسكرتهم نشوة الانتقال النظري، من المراهقة إلى مرحلة الرجولة. استقلوا عربة أجرة هبطوا منها في أحد الأحياء الفقيرة. هطل أثناءها مطر شديد ورياح شرقية الهوى قاسية. ساروا في الشارع يستهدون بإرشادات المارة، بحثاً عن ماخور. دلهم بعض الشباب على مبنى به شقة رقمها تسعة في الطابق الثاني. كان جسار أكثرهم حماساً للفكرة، فلديه فضول لمعرفة الأجواء ورؤية نساء يمنحن أنفسهن للرجال، بعلاقة عابرة مجردة، كأي خدمة بين تاجر وزبون.

صعدوا مبتلّين، تدفعهم عجلة الاكتشاف، درجاً ضيقاً لولبياً يؤدي إلى الطابق الثاني. قرعوا باب الشقة التاسعة، فتحت لهم فتاة بعد أن نظرت من العين الزجاجية المثبتة فيه، ودعتهم للدخول. تقدموا حتى اجتازوا الممر الضيق، ثم وقفوا. كانت تاجرة المتعة، قابعة في صدر الصالة، يتجمّع حولها فتيات بأعمار وأشكال مختلفة، وصدور عامرة بالخير، سلطن أعينهن عليهم، فبدا أن مظهرهم الهجين، إضافة إلى صغر سنيّ أعمارهم، قد أثار استنكارهن.

مع هذا، استقبلتهم ابتسامات معجبة مزيفة، وضحكات خليعة مفتعلة، لزيادة مساحة الإيحاءات الجنسية. استقرت نظرات السمسارة عليهم، قامت من مكانها مرحبة، ببجامتها الخفيفة، داعية إياهم للدخول. تقدمتهم بدلال أنثوي غابر، بوجه نحيف أعجف، خال من كل زينة أو مسحة خجل، أجلستهم في الصالة، على كنبة كبيرة، باهتة اللون. ظل يلفهم ترقّب مشوب بالحذر، حتى تكلمت السمسارة دون حياء مع خليل، كأنها تتحدث مع زوجها في حلال مطلق. بمهارة المقامر المحترف، توغل خليل معها في الحديث، مساوماً في الأسعار، وهو يرشف من بقايا عصير وجده على الطاولة. حدجته السمسارة بنظرة فاجرة، أردفتها بضحكة مصطنعة، كأنها تخلصت عن طريقها من ذل المساومة، مردفة أن أسعارها ثابتة، ثم عادت إلى جلستها على الكنبة.

طغت رائحة السجائر في الأرجاء، وما هي إلا لحظات، حتى أخرج خليل صفيراً حاداً لحسناء تلبس بنطلوناً ضيقاً وقميصاً مفتوح

الصدر يكشف نصف ثروتها. تجاوزتهم الفتاة على عجل، باتجاه المطبخ، تاركة خلفها عبقاً أنثوياً شهياً. استمر صوت وطء أقدامها وهي عائدة من المطبخ. انجذب إليها خليل، كقطعة حديد إلى مغناطيس. أقبل نحوها في ود، سائلاً وهو يمسك بنهدين متمردين امتلآ لذة، عن الثمن. ابتسمت الفتاة في حياء وأدارت وجهاً كساه الخجل. دُهش خليل، كيف يصدر كل هذا من فتاه متمرسة، غائصة في دنيا الانحراف! سقطت ابتسامة صفراء ماكرة، على شفتي خليل، وبعد طول مساومات، أتاه صوتها الناعس يسطع بثقة من بين شفتيها: إما هذا السعر وإلا فانصرف!

وضعته الفتاه أمام الأمر الواقع. أغوته بقوة شخصيتها، فقبل على مضض. مدّ لها ثمن الخدمة، ثم نهضا باتجاه إحدى الغرف، وهي منساقة خلفه عن طيب خاطر متبسمة لصديقاتها. احتضنها خليل قبل أن يصلا إلى الغرفة، ثم دخلا. أزالت رافعة الصدر عنها، جذبها إلى صدره بقوة، مقبلاً ثغرها. تشابكت أيديهما، وصمتت شفاهما عن الكلام، لا عن الحركة. بدأت أرجل السرير بالارتجاج، غاما في سحابة الحب.

بعد دقائق، ظهر خليل في الصالة ولمعة النصر في عينيه. تجوّل داخل الصالة، رامياً بصره على الجميع، فهُيّئ لهم أنه يبحث عن شيء مفقود. وقع بصره على فتاة نحيفة البدن، ضامرة المعالم الأنثوية، قصيرة القامة، وبرغم أنه لم يكن قد مضى على ارتوائه من أنوثة رفيقتها، سوى دقائق قليلة، إلا أنه وجد نفسه دون تفكير متجهاً إليها. سحبها من

يدها بصمت، نقدها ثمن خدمتها، فسارت معه كطفلة مذنبة، مبتعدة عن الصالة، وسط ضحكات زميلاتها.

دخلا الغرفة نفسها، وقبل أن يضمهما السرير، أفصح خليل عن رغبته في الشرب. خرجت الفتاة وعادت حاملة جردل الثلج، وبداخله زجاجة بلاك ليبل وكأسان فارغان. أمسك خليل بالكأس بإصبعيه، جرع منه جرعة خفيفة، رفع رأسه، أبقى الجرعة قليلاً في فمه، تمضمض بها قبل أن يبلعها، واجتاحت صدره سخونة هائجة. لفت نظره وشم لأفاعٍ على كتفها، وصورة جيفارا على ردفها، تحاورا قليلاً، ثم استيقظ جسده، بعدما تأملته بابتسامتها الخبيرة، ودعته إليها.

أنهى خليل عناقه المسعور، واندفع مترنحاً جهة الصالة. صدره عار، يلف وسطه بالمنشفة. تسلّلت عيناه في جميع الاتجاهات، باحثة عمن يجود عليه بسيجارة. وثبت قطة، بعد أن حدّقت فيه بعداء. نادته السمسارة، متعهدة الأمزجة المتعطشة للحرام، ناولته سيجارتها، وهي تبرز وركها بطريقة مميزة، وعادت تسكب لنفسها الشاي، وهي مسترسلة في استعراض حصيلة اليوم.

أدرك علي علوان أنه سيكون مثار سخرية أصدقائه، إن رفض الذهاب مع أي فتاة إلى الحجرة. أثارته نظرات فتاة شديدة الاغواء والأنوثة، جمال متوحش شرس، حاجبان هلاليان دقيقان، أشقران وخفيفا القتامة، يشيان بأصولها الأوروبية. كانت تمسك بكوبها الخاص، تحتسي قهوتها بتلذّذ وهدوء، وتنظر إليه بين الحين والآخر. سار باتجاهها، قائلاً بتلقائية وهو يمد يده إليها: هيا بنا.

دخلا الحجرة وأغلقا على نفسيهما الباب. تخلصت الفتاة من ملابسها، واتكأت على يديها وركبتيها ومضت تحبو كاللبؤة باتجاهه. كان علي مرتعباً، عيناه لا تقابلان عينيها، لا يدري ماذا ستكون عليه الحال، بعد دقيقة. تقدمت منه، وجلست على طرف الفراش، متطلعة بهيام إلى صدره القوي. صارحته باسمها، نتاشا، بلغ الاطمئنان كيانه، فاحتواها بيده عاصراً كيانها الدافئ. تمددت فوق السرير، عارية مشتهاة، هامسة له بصوت أنثوي مترع بالدلال: تعال. ألقى علي برأسه على صدرها ببطء، ابتسمت وهي تضع يدها على صدره، محاولة إلصاق جسدها بجسده، همّ بها، إلا أنه استكان. ألصقت نتاشا خدها برقبته، في تلقائية، هامسة: ما بك!

اقتحم خلوتهما طيف سلمى، فجأة انتصبت صورتها أمام علي، لا تريد أن تبرح خياله، وتراءى له أن رشحاً مائياً يسيل من عينيها الحزينتين. برقّة وخفة، انفلت علي من براثن نتاشا، رافعاً جسده عن صدرها، رغماً عن حدة جماله وبهائه. هبط مستلقياً على بطنه، ممدداً على أرض الحجرة الباردة، محاولاً إطفاء اللهيب المتأجج داخل كيانه.

نزلت نتاشا إلى أرضية الحجرة، مقتربة منه، محتوية وجهه بين كفيها، متطلعة إلى عينيه وشفتيه، متسائلة بهمس عربي ركيك: ألا تشتهي النساء؟ دفع علي كفيها برفق، ولاها ظهره قائلاً ببراءة: نعم أشتهيهن... لكن قلبي معلق بفتاة أحبها. ضحكت نتاشا، وهي تقوّس حاجبيها استغراباً، وردّت ببرود شديد : آي سي. نهض علي، مولياً لها ظهره، وكرّ راجعاً إلى الصالة، حيث كان خليل وحامد وجسار.

كانت خيبة خليل في رفيق دربه علي كبيرة. أسمعه فاصلاً من التقريع، ثم خرج الأصدقاء قبل أن يشتد الظلام، غير آسفين على الوقت المهدور. هبطوا من المبنى، والمطر مازال ينهمر. بذل خليل وجسار جهداً كبيراً للمحافظة على توازنهما. توقفت عربة أجرة أمامهم، ابتسم السائق وهو يحني رأسه حتى يراهم من النافذة اليمنى. قذفوا بأنفسهم داخل السيارة. طلب خليل من السائق الذهاب إلى وسط المدينة.

صاحبت الأصدقاء نشوة، وهم يجوبون طرقات العاصمة. ابتلعهم زحام الشارع الكثيف الجميل الذي تلألأت أنواره، وتهيأت قبل ساعات محلاته لإغواء رواده من الكائنات الليلية. كان الهواء القارس المبلول يصفع وجوههم ويعصر أنوفهم. وفي محاولة مستميتة لاستعادة النشوة التي تبخرت، دخل خليل يتبعه أصدقاؤه إلى أول ملهى قابلهم، تبرق فوق مدخله لوحة نيون تسطع بضوء أحمر.

هبط الرهط درجات الملهى الخمس، كأنه يدخل سرداباً. لا روعه تفوق ما طالعهم من أجواء مسكونة بالجمال، والمرح، والمتع والملذات. ضحكات نشوى مخمورة، طقطقة كؤوس واصطكاكها ببعضها في زهو، دخان سجائر، روائح مشروبات، ضجيج محبّب، موسيقى صاخبة، أنوثه مستفزّة، فتيات يغمزن، يضحكن بدون أدنى سبب، وعلى الرفوف تتلألأ أنبذة شيطانية وزجاجات كريستال.

استقبلهم الجرسون الأنيق، مرحباً. كان ينحني ويبتسم بأدب مبالغ به للجميع. قادهم إلى طرف البار، يتقدمهم خليل، متسلحاً

بماله وسجله الحافل بشتى المعاصي والذنوب. جلسوا في الركن الأكثر عتمة، بالقرب من بار خشبي قديم الطراز برفوف مكتظة بقناني الخمر. بأدب جمّ، سألهم الجرسون عن طلباتهم، فطلب خليل لنفسه فودكا، بينما طلب بقية الأصدقاء، من باب الزهو زجاجة بلاك ليبل. هزّ الجرسون رأسه وانسحب مبتسماً، ليعود مع انحناءة، كانت أجمل ما فيه، محضراً أطباق مازة باردة، وزجاجتي فودكا وبلاك ليبل. أزاح خليل مزهرية من الكريستال الفاخر، عامرة بالورود تتوسط طاولتهم، وبدأ يغازل القارورة الأولى، معتنياً بأصدقائه، متأملاً نيل نشوة جاؤوا من أجلها.

لم يشرب علي علوان وراوده شعور بالندم على فعلته مع الفتاة. أدرك خليل أنه في أزمة ضمير عابرة، فصاح فيه، وهو يملأ كأسه: من فضلك دعنا نشرب ولا تقلبها غماً، ثم مسح شفتيه بظهر يده صائحاً: لنشرب في صحة الجميع. ضرب الأصدقاء كؤوسهم بعضها ببعض، وشربوا جميعاً عدا حامد.

وحين أينع مفعول الكحول في أعينهم، نما وأثمر، رفع خليل يده، مناديا الجرسون، طالباً الشمبانيا بحماس الكرماء. تبارز الرفاق لدفع الحساب، لكن خليل تصدى للمهمة بكل نخوة، رافضاً أن يدفع أحد غيره حساب الليلة.

أحضر النادل زجاجة خضراء، تسبقها ابتسامة متناسبة مع الإكرامية التي يتوقع الحصول عليها. نزع سدادتها، فأحدثت فرقعة في

الجو، وسالت رغوتها من فوهتها. مد خليل يده، صبّ لأصدقائه وله، ودفع كأساً إلى حامد: اشرب يا أخي، لن تخسر شيئاً. شرب حامد، ولم يستسغ طعم الشمبانيا، فدلق الكأس على الأرض ليوهم خليل بأنه انتهى.

راكم الليل ظلمته، وازدحم الملهى برواده، وانبعث في الأرجاء ضجيج مبهم، قبل أن تطلّ راقصة لولبية، شهية، مرحة، انساقت مع إيقاع عازف الطبلة.

شرب خليل حتى الثمالة ونهض يرقص. ضم الأصدقاء شيطان النشوة، فقاموا يرافقونه على أنغام الفرقة. بقي حامد صامتاً يدخن سيجارته، متأملاً جمرتها، مستمعاً إلى المغني يصدح بموال تقول كلماته:

جسد ناحل، وقلب جريح ودموع على الخدود تسيحُ
وحبيب صعب التجني ولكن كل ما يفعل المليح مليحُ
يا ابن عمي ملأت بالوجد قلبي إن طرفي من الدموع قريحُ

بعد كأسه الخامس، شعر خليل بنشوة عارمة. مسح المكان بعينيه، منقباً عن أي أنثى تستهويه. تسمّرت عيناه على وجه فتاة جالسة على المقعد العالي للبار. كانت ذات جسد عبقري، عينين مخمليتين، أنف منسجم مع بهاء الثغر، وكانت تجمع شعرها بمشبك على هيئة وردة. نهض مسرعاً، حين وضعت الفتاه سيجارة بين شفتيها، أشعلها فشكرته بينما هو يتحدث بالإشارة وبأصابع اليدين وملامح الوجه والعينين،

داعياً إياها لتشاطرهم سرورهم. بانت انكسارات الخجل على قسمات وجهها، وحاولت إفهامه، أنها جاءت مع صديقها. زعق فيها خليل فجأة، كمن يُشهد الجميع على ما يقول: تباً لك، فجفلت الفتاة من هذه القفزة في الحديث، ومضت تبحث عن صديقها الذي ما أن رآها، حتى علم من لغة عينيها أنها واقعة في مشكلة.

لم يقدر خليل على الافلات من القبضة التي أطبقت عليه وألقته أرضاً. تدحرج خليل وتطاير السرور الذي احدثه الخمر في رأسه. ارتدى الرعب وجه جسار، وصاح علي علوان بأصدقائه: الزموا أماكنكم، ثم تقدم لكي يمنع عن صديقه شرور الكائن الساعي لإيذائه. انقلبت الموازين في طرفة عين، التقط علي أنفاسه المكروبة، صارخاً لدرجة أخاف بها نفسه، هاجماً على الشاب مثل ثور أهوج، ناطحاً إياه برأسه، ما طرح الشاب أرضاً، مغمياً عليه. كفّ الجميع عن الحركة، وتعلقت الأعين بالأصدقاء الذين انسلوا على مهل، ثم أطلقوا سيقانهم للريح، حتى تقيأوا بعد حين كل ما شربوه وأكلوه.

كان الفجر يوشك على النهوض حين دخلوا غرفة الفندق التي اكتراها خليل. دخلوا يترنحون، مثقلين بوزن الجسد والأفكار والكلام الذي لم يقل في وقته. استلقوا متعبين، منهكين حد الانهيار، وراحوا بعدها في نعاس لذيذ. استيقظوا عند الظهيرة على صداع، من أثر المسكر، ثم نزلوا وعادوا بعربة أجرة.

حين انتهيا من استذكار تلك الرحلة إلى ماضيهما، أسرّ خليل

لصديقه علي أن سخاءه عليهم في ذلك اليوم كان من المال الذي سرقه من أخيه عامر، ما أغرق الاثنين في نوبة ضحك أقرب إلى عواء ممتزج بسعال.

نهض خليل ليتأكد من أن باب المكتب مغلق، ثم وضع إصبعه على شفتيه المضمومتين، آمراً علي علوان بالهدوء والإنصات. أشعل سيجارة، وقال وهو ينظر إلى عيني علي مباشرة: غداً سيأتي الحكم من القيادة العليا!

جمدت الدماء في عروق علي وافترسه احساس الرعب المقيت، انقبضت معدته، وسرت رعشة باردة في عموده الفقري. طلب من خليل الذهاب إلى الحمام. أذن له خليل، فخرج من الغرفة، سائلاً الممرض عن اتجاه الحمام. تابعته عينا الحارس بحذر وهو يمضي، حاملاً قدميه الثقيلتين، كأنه يساق إلى الموت. دخل الحمام مترنحاً باتجاه المرحاض. أطلق سراح جوفه، ثم نهض ليتوضأ. حملق طويلاً بعينين منكسرتين في المرآة، لقد نبت الشعر على ذقنه، قست ملامحه، وسطّر جرحه القديم صفحة وجهه.

مع عودته إلى الحجرة، مازحه خليل مبتسماً: شعور جميل أن يخاطب الإنسان بسيادة النقيب، يا علي! شيء تهتز له طبلتا الإذن طرباً، أليس كذلك؟ ضحك الصديقان، ثم سأل خليل علي بريبة عن سبب مهاجمته للرائد صلاح، فأخذ علي نفساً عميقاً وروى:

– رجعت إلى السرية، من حرب الخليج، بعد تماثلي للشفاء من

إصابتي. مع مرور الوقت، أصبحت الأيام تتشابه في تفاصيلها. صار عملي روتينياً، بليداً، يحطم الأعصاب. كانت حياتي في المعسكر جافة، صارمة، كأني أمارس طقساً بات قديماً لكثرة ما مارسته. وذات يوم من أيامي العابسة الغاضبة، أخذ الرائد صلاح يرسم تفاصيل تمرين للسرية خارج أسوار المعسكر، مقرراً أن ينطلق الجنود ما أن تبزغ تباشير الفجر. حملنا عدتنا وعتادنا، اعتمرنا خوذات معدنية مبرقعة، ألقينا حقائبنا الثقيلة على ظهورنا، وتشبثنا ببنادقنا، وركبنا حاملات الجنود إلى موقع التمرين. كنا في شهر أغسطس، شمس صحراوية صارمة، متوهجة، ارتفعت سريعاً. مع هذا، بدأنا بتشكيل صفّ للمسير عبر الصحراء.

استقر الرائد صلاح، بنرجسيته المعهودة، على رأس الرتل، متقدماً الطواقم البشرية، بعربة مموّهة. سرنا، بشكل متعرج، كأفعى طويلة تمتد مئات الأمتار. عبرنا طرقاً ملتوية، في بطون التلال، حتى وصلنا إلى رمال ناعمة شاسعة، لا حياة فيها، لا لطائر أو شجر أو لأي كائن. توسطت الشمس كبد السماء، وهي ترسل شظايا من نار. مضينا بحكم العادة، دون أن نفهم أين ستكون وجهتنا. كان وكيل السرية يرشقنا بعبارات ترفع معنوياتنا. لكن، رويداً رويداً، بدأ حماسنا يذوي، أخذ الجوع يداعب أمعاءنا، فبدا علينا التبرّم والإعياء الشديد. وبعد أن مشينا في عملية سير ممنهجة، أصبح الجميع في غمّ وحيرة وسط حرارة لاهبة، غاصت أقدامنا في التراب، اختل توازن أحد الجنود فارتجف

جسده وهوى منكباً على وجهه، فوق صفحة الرمال الناعمة، مسقطاً سلاحه من يديه. توقف الركب بعد أن تيقن أن الاستمرار في التقدم سينتهي بنا إلى لا شيء. كانت الوجوه تزداد سخونة، الأجساد تتململ، والغضب يلوح في عيون أدمنت الصمت. تعامى الرائد صلاح عن نداءات متكررة بضرورة منحنا استراحة. جاء رده وهو يرمقنا باستنكار، كأنه يلعن غباءنا: أكملوا المسير.

مع تزايد السخط، فوجئنا بصوت مفجوع يأتي من أقصى المكان. كان لجندي شاحب الوجه، شديد الهزال، محني القامة، يقبل صارخاً: لقد لدغت أفعى أحد الجنود، سيدي! هبط الرائد صلاح من عربته، ثم انتحى جانباً، يتأمل في حكمة مصطنعة تضاريس المكان، بينما وقف الوكيل بجواره، مطأطئاً رأسه بخشوع، كأنه يمارس شعيرة دينية. متجاهلاً الجندي وصرخاته، وموحياً للجميع بفوقية خاصة، رد الرائد بلهجة الضابط الآمر: لا يهم، تابعوا المسير، ثم أشار لأحد العناصر بالبقاء مع المصاب. لم يكن أحد منا قادراً على المزيد من البذل. قذف جندي بندقيته من يده، قائلاً وهو يلتقط أنفاسه: لا أستطيع التقدم. لمَ كل هذا؟ ظلّ سؤاله حاضراً، وظلت الإجابة غائبة.

تذوقت ملوحة العرق بين شفتيّ، وصرخت في الرائد: أنا أيضاً، لم أعد أحتمل، هذا جنون، جنون. ثم تبيّن أننا جميعاً نتقاسم رغيف الهموم. توالت الاصوات والهمهمات، إلا أن إشارة من يد الرائد صلاح، فرضت الهدوء التام. كانت أصواتنا كافية لرفع درجة الحنق

في وجه الوكيل الذي استدار مبتعداً، بينما رمقني الرائد صلاح بكراهية وهو ينظر إلى جهة واحدة، قائلاً بإيجاز: حسناً. خذوا خمس دقائق استراحة. هلل الجميع، وخلال ثوان، أحاطت وجوه هدّها التعب بعربة الرائد صلاح، بحثاً عن ظلال. تفرّق العشرات منا في التلال القريبة، التي رأوها كالمنفى، وساد صمت رهيب، يقطعه تذمر مكبوت هنا، ولعنات محبوسة هناك.

أخذت أدور، باحثاً في تلك البيئة الشحيحة، عن مكان يستوعبني. صعدت بحرص إلى قمة إحدى التلال القريبة، أزحت الحقيبة عن كاهلي، أسندت بندقيتي إلى حجر طيني قريب، وتمددت على الرمال الناعمة، مسترخياً يائساً، من حولي الخواء والعدم. أتاني النعاس الناعم، سريعاً، ثم ما لبثت أن أفقت صارخاً من ضربه تلقيتها من عقب بندقية، على مكان الجرح في ساقي. أخذت أتلوى على الأرض، كثعبان، من شدة الألم. كان الرائد صلاح هو من ضربني! شعرت بذل وهوان وعقدت المفاجأة حواسي، فانزويت حانقاً، ثم نهضت بعد دقائق، لأستوضح سبب غضبه، خاصة وأن بيننا بوناً شاسعاً من الاختلاف غير المريح، وجفاء وريبة، جراء عداء قديم سبق حرب الخليج سببه اختلاف في الرؤى.

صدقني يا خليل، لقد كان أسلوب الرائد صلاح مبرمجاً، على الصد والإغضاب، وإيصال الذي أوقعه حظه العاثر بين يديه، إلى حافة اليأس. دوماً وأبداً، كنت أتلقى تسفيهاً من لدنه. تعقبني، استفزني، تعمد

إهانتي والتنكيل بي. على مرّ الشهور، وهو يبالغ في توجيه أوامره لي أمام بقية الجنود، دون مراعاة لأصول التراتب العسكري في التخاطب، خارقاً بذلك كل القوانين. المهم، اقتربت من سيارته صارخاً من قلب أضناه التعب وتسربت إليه طلائع اليأس: لماذا أيقظتني هكذا سيدي، أي ذنب اقترفت بحقك؟ رد الرائد، وهو ينفخ من شدة التبرم، متمنياً لي الهلاك في أسرع وقت: التمرين مستمر، لا مجال للنوم يا رقيب. ثم أغلق نافذة عربته، لاهثاً، من شدة استغراقه في الضحك.

ضاعف اسلوبه البغيض، من امتعاضي. لم يكن يعلم بأني ندّ له، ولست تابعاً مسترزقاً، أو خانعاً ذليلاً. طرقت النافذة صارخاً، بكل الجنون الذي فيّ:

– حين تحدثني، حدثني باحترام. أوامرك القائمة على الإذلال، لن تصل بنا إلا إلى القاع.

حين تجاهلني، همست لنفسي: الآن، وإلا فلن يكون أبداً... ولم أفوّت الفرصة. فتحت باب العربة، أمسكته من سترته وأخرجته مسدداً قبضة هاوية غاصت في وجهه، لتعود مثلومة دامية. سالت دماؤه على جانبي شفتيه، خارت قواه تماماً، تكوّم على الرمال يعوي بصرخة ألم خرجت من قحف رأسه. بصقت عليه، بكل الغضب الذي كان كامناً في صدري. تملّك الذعر وكيل السرية حين رأى الرائد مجندلاً، فاقداً حيويته. وكونه أكثر المحيطين بالرائد إخلاصاً، فقد حاول فض النزاع، ناظراً إليّ بعينيه المدربتين على بث الرعب في نفوس الجنود المستضعفين الذين لم أكن حينها منهم.

أنهى علي علوان سرد الواقعة، ثم نهض بقلب اشتد خفقانه، نافثاً دخان سيجارته، رامياً عقبها على أرضية الغرفة، قبل أن يسأل: ما رأيك يا خليل، ماذا تتوقع أن يحدث لي؟ لوى خليل فمه، مجيباً: لا أعلم، إلا أنه أضاف ليطيّب خاطره بكلمة: مهما يكن من أمر، فقد استنفدت محكوميتك، ويجب أن تخرج.

★

كان الهدوء متفشياً في المكان. واصل علي السير سالكاً الدرب نفسه الذي سلكه من قبل. احتوته ظلال الجدران الرطبة والممرات المعتمة، حتى دخل خفيض الرأس زنزانته. استقر ملتصقاً بقضبان الباب الصدئ، مترقباً مجيء الغداء، بعدما اهتاجت شهيته للطعام.

أنهى علي علوان طعامه الذي أوصى النقيب خليل الحراس العناية به. حاول مقاومة قوافل الوساوس التي انتابته زاحفة، فاستلقى على ظهره، واضعاً رجلاً على رجل، طاوياً يديه تحت رأسه، مقلباً عينيه في العتمة مثل هر متربص. تأمل ما ادخره طوال لياليه السبع من خواطر. شخصت عيناه المشبعتان بالتساؤل، إلى سقف الزنزانة، تولد في أعماقه قلق: أين أذهب إذا سرحت من العسكرية؟ تشعبت أصابع الأجوبة في عدة اتجاهات، ومن سؤال إلى إجابة ومن شك إلى يقين، عاد السؤال الكبير بمعناه، الصغير بعدد كلماته: ماذا أفعل إذا تم تسريحي من العسكرية! تمتم لنفسه: أنا صاحب حق، ولن أقبل بالذل أو الهوان من أي شخص كان. كم كلفني الالتزام بمبادئي غالياً، وها أنا الآن محاصر بسجني وعاري ومحاكمتي التي يريدون إذلالي بها.

أحسّ علي علوان بنشاط غامر جراء حقنة الدكتور شريف. قام لأداء صلاة دون تحديد اتجاه القبلة، أحسّ من بعدها وكأن المكان امتد واتسع، والعتمة أضاءت كأنها الفجر. اجتاز حاجز الزمان، وتراءى له أبواه وقد صارا طفلين ينهشهما المرض والعزلة، ويعذبهما إصراره على بقائه عازباً. رأى أمه تمضي شيخوختها، مع الحاج علوان بعدما هدّه المرض، ورأى الأخير جالساً في مكانه المعهود، يتشرّب في عظام شيخوخته آخر أشعة شمس الغروب، ضاماً إزاره بين ركبتيه، محدقاً بعينين كليلتين إلى الحارة، لا تخرج منه سوى أصوات مبهمة عالية من لسان أثقلته الجلطة.

أخذت الذاكرة علي إلى سنوات قضاها بين المجد في النادي، والصحوة في مدرسته العسكرية. النادي الذي أورثه مكانة اسطورية بين أصدقائه، وعداوة دائمة مع زملائه الملاكمين. كم اشتاق إلى ديفيد، وإلى الكوتش .. وأيضاً الى البار. تراءت له ثكنات المدرسة المحاطة بالسكون، والأسوار من شبك بدائي يشهد على بداية البدايات. تركه الحاج علوان ذات صباح، مع صديقه حامد، آملاً أن يسبحا في بحر الحياة ويكونا مسؤولين عن نفسيهما. علت بسمة انشراح محيا علي، هي فرصته للابتعاد عن سطوة أبيه، وفرضه عليه قراءة القرآن يوم الجمعة ساعة كاملة.

تذكّر يومهما الأول، كيف استقبلهما المدرسون بعشوائية، أعطوهما ملابس الطلبة العسكرية، وتوزيعهما على المهاجع. كان

البركس عبارة عن مبنى بطول عشرين متراً وعرض عشرة أمتار، سقفه يرتفع ثلاثة أمتار تتوسطه مروحة يتيمة، تراص على أرضيته عشرون سريراً بفراش زمبركي، في صفين متقابلين، ملقى على كل منها شرشف ناصع أبيض وبطانية سوداء خشنة، وبجانبه خزانة قديمة وسحارة يضع فيهما الطالب جميع مستلزماته. كان يتناوب على تفقد الثكنات يومياً، أحد المدرسين، فتنام بأمره وتستيقظ بأمره.

جلس علي علوان مع حامد، في البركس، محاولين استيعاب ما يحصل لهما. وبقدر ما كان المكان غريباً عنهما، كانا هما أيضاً غريبين عنه... بل أكثر. في ليلتهما الأولى، استلقى حامد على سريره، ملصقاً بوجهه الوسادة، واضعاً اللحاف فوق رأسه، باكياً إذلاله ويتمه وشعوره بعدم الأمان واشتياقه إلى أمه. كذلك فعل علي علوان، مسلماً نفسه لفيض متوحش من الهواجس، مسترسلاً بغصات الحنين إلى البيت. اكتشف الصديقان البؤس. أيقنا بعد مرحلتهما المراهقة الجامحة التي قضياها في النادي مع خليل وجسار، أنهما أصبحا كائنين مقيدين، مراقبين. تشاركا الحزن، وترقبا قدوم كل خميس ليتلقيا بشارة الخلاص مما عانياه من وحدة قاسية وحجز قسري لا يفهمان معناهما. لازمهما شعور الخوف والحرج، الاحباط والارتباك. حصص دراسية مكثفة، تتبعها حصة تدريب عسكرية مقرّرة. كان برد الصباح ونداه المتساقط يتسللان بنعومة إلى جسديهما الصغيرين، فيكادان يتحجران كتماثيل المعابد. أصبحت أحاديثهما بإيماءة رأس أو رفة عين. أمضيا سنواتهما

الأولى في تدريبات للمشاة. ترديد دؤوب ودائم لشعارات وطنية، مهيجة للعواطف، رافعة للروح المعنوية.

كان علي علوان بمثابة المايسترو في الطابور. يمشي بحركة ميكانيكية، رافعاً من طبقة صوته وقد اعتراه الحماس، مطوحاً بذراعيه بنسق متشابه، مع من هم في الطابور قبله، وبعده. استرح، استعد، تهيأ ، يمين درّ، يسار درّ . يذهب الجميع بنسق منتظم، لتناول وجبة الإفطار، وبعدها إلى الصفوف، ثم العودة إلى البركس حيث أصبحا مقيمين دائمين. مرت السنين وتعوّد الصديقان على الأجواء. اندمجا في المدرسة مع الكثيرين. حتى أنهيا الثانوية العامة. يومها باتا مرتعبين من فكرة الالتحاق بالجيش، مفضلين الابتعاد عن الموت المجاني الذي يداعب الجنود حيثما حلوا.

مسح علي دمعه تشكلت في مقلتيه، تقلب بجسده فوق بساط الملل. ترامى إليه صوت نافذ من الانفرادية المجاورة. تراتيل تتفجر حزناً وفجيعة. مرّ النهار إلا أن الزمن لا يمضي. ما زالت أمامه ليلة طويلة، خالية الوفاض. انكمش على نفسه مستجدياً النوم، إلا أنه أفاق على أثر حر غليظ تسرب إلى عنقه وصدره، فظل مستيقظاً حتى جاء موعد وجبة العشاء.

أفاق في جوف الليل، ليطل على مشهده الداخلي المعتم. لا شيء في الانحاء. رضخ علي علوان لسلطان النوم، حين انسحب الليل في هدوء واشرقت شمس الصباح على استحياء. انتفض من نومه البائس،

في الساعة التاسعة، على صرخة حارس يؤدي وظيفته كأنه مضطر ومكره عليها، قاذفاً له من خلال القضبان، لباسه العسكري وحذاءه، قائلاً بلهجة صارمة: لديك خمس دقائق فقط.

لبس علي هندامه ومضى مع الحارس. عبرا ممرات ضيقة، مسيجة من الجانبين بكثير من الأسلاك، ارتسمت ظلال خافته أكبر من حجمها على حائط مبنى الإدارة الكبير. اجتازا ساحة رحبة أمامها بوابة وحراس منهمكون في حركة دؤوبة. دخلا من باب معدني إلى ممر نظيف يفضي الى بهو كبير تتوسطه نافورة رخامية، تعلوها قبة زجاجية.

اقتاده الحارس إلى حجرة نقشت بمنتصف بابها لوحة صغيرة بحروف ذهبية – الضابط المناوب–. دخلا، وقف الحارس ضارباً بقدمه الأرض بعزم، أمام ضابط برتبه صغيرة، أنيق الهندام، يرتدي بذلة كاكية اللون، وقبعة كعرف الديك. بدا الضابط في مطلع العشرينات، أو دونها بقليل، يقف خلفه جنديان مهندمان. أسلمه الحارس إلى الجنديين بعد أن تقدما لاستلامه. خطا الحارس خطوات حتى صار وراء سيده، وجمد هناك كصنم. خفق قلب علي علوان بشدة، انقبضت معدته وأحشاؤه، اعتراه قلق يثقل الأنفاس. دعاه الضابط للجلوس، سأله: هل هي أول محاكمة لك! ارتبك علي من سؤاله، لم يعد يعرف إن كان ذلك خيراً له، أم شراً عليه. سكت برهه، ثم رد بوجه خال من أي انفعال وبهدوء: نعم، هي أول محاكمة لي، سيدي.

أخرج الضابط من طيات ملابسه قلماً أنيقاً، ومن حقيبة جلدية

بلون بني فاتح، ملفاً به أوراق وضعها أمامه، مشيراً إلي علي علوان أن يقرأها. تناول علي الأوراق متفحصاً، مجتهداً، هادئاً، ثم قال من فوره:

- ما هذا، سيدي!

رد الضابط باقتضاب:

- إجراء روتيني يؤكد أنك مستعد للمحاكمة، ولن يصدر عنك ما يعكر صفوها.

لم يعقّب علي علوان. أمسك القلم بأصابع ترتعش أطرافها، مذيلاً الأوراق بتوقيعه. التقط الضابط الأوراق وأعادها إلى الملف. قام عن مكتبه وجلس قبالة علي، ثم تكلم بجدية ورفق:

- أنا المشرف على المحاكمات، ستنتظر في الغرفة المقابلة قدوم القاضي العسكري. سيرافقك الجنديان. أنا أحترم ماضيك وخبرتك السابقة، إلا أن هذا هو الإجراء المتبع هنا. عموماً، لا داعي للقلق.

خرج علي بمرافقة الجنديين إلى حجرة الانتظار، دخل بينما وقفا أمام الباب في حالة انتباه دائم. طالعته في الحجرة مقاعد خشبية طويلة جلس عليها بضعة مساجين متناثرين، شبه غافين. جلس علي، شاعراً بأن اليوم سيطول، متمنياً لهذا المشهد الدرامي أن ينتهي سريعاً.

دخل فجأة إلى الحجرة عدد من المساجين، تتبعهم دفعات حراس متعجلين، زاعقين، سرعان ما تفرقوا الى جماعات صغيرة تتناقش في أرجاء الحجرة.

كانت مفاجأة حين لمح علي علوان سجين الانفرادية، صاحب

الألحان الشجية، يدور في مساحة الغرفة، باحثاً عن مكان يستوعبه، إلى أن اختار ركناً قصياً في طرف الحجرة. لم يستطع علي كبح فضوله، فاتجه نحوه ماداً يده للسلام.

انهار كل توجس بينهما، وحل مكانه إحساس بالأمان والتعاطف. سحب علي نفسه مقترباً، حتى لم يعد يفصل بينهما إلا مقدار ذراع. لاحظ علي بأن العمر بدأ يحفر ملامحه على وجه السجين، رغم أنه كان في شرخ الشباب. رأى أيضاً بثور الجدري محفورة. سأله سؤالاً سرمدياً طالما رددت جدران السجون صداه: ما هي قضيتك؟ وقبل أن يتحدث السجين، تقدم منهما فجأة أحد الجنود بآلية غريبة، صارخاً بصلف: ممنوع الكلام.

تعالت أصوات ضوضاء تقترب، وهمهمات من داخل وخارج الحجرة. نهض علي علوان ببطء، متسائلاً عن كنه ما يجري، رد احد المساجين: لقد حضر القاضي. دخل القاضي إلى الردهة بحرص، وعيناه تبتلعان المكان. أخذ يسير شابكاً يديه وراء ظهره، منصتاً باهتمام إلى أحد الضباط يحادثه. خطا إلى وسط الممر، فتعلقت به الأبصار، تتابعه برهبة. كان كبيراً في السن، يرتدي بدلة عسكرية زاهية، برز منها كرش منتفخ. تجلّت هيبته وعزيمته حين نزع نظارته الداكنة، وتفقّد المشهد بعينيه العسليتين الغائرتين. تبدلت ملامح المساجين، أطلق أحدهم آهة وكأنّ روحه تتمزق، تلتها همهمة جماعية تعرب عن سخطها. علا فجأة صياح الضابط: سكووت.

اجتهد الضابط الشاب في اظهار هيبته وأهميته. دخل غرفة الانتظار، اشرأبت أعناق المساجين وخفتت الأصوات حتى اختفت. نهض الجميع، ارتصوا متجاورين، كتفاً لكتف، بزي نمطي موحد، ورائحة أجساد متعرّقة.

أمر القاضي بدخول المدانين بانتظام. دخلت أولاً وجوه عليها نوع من اللامبالاة، تتقدم كماشية تتبع راعيها باستسلام. كانت لزمرة أغرار مستجدين، مراهقين مكبوتين، أعماقهم تهفو إلى التحرر والانطلاق. حدّق القاضي في الجميع، سألهم عدة أسئلة، فجاءت أجوبتهم عفوية. تحدثوا مطولاً، شكوا وبكوا، قالوا وأعادوا، حتى خيّل إلى القاضي أنه لا جديد في كلامهم.

كان القاضي عملياً إلى أقصى حد، رأى الكثير في حياته، فما عاد شيء يحرّك مشاعره أو يدهشه. رمقهم برفق أبوي، شارحاً نظريته باقتناع، وهم يستمعون إليه في صمت مطيع. حكم عليهم في النهاية، بعودتهم إلى وحدتهم، بعد أن قضوا في الحبس اسبوعين كاملين، بتهمة الفرار من المعسكر. بحلقوا بوجوه بعضهم، هتفوا بدهشة مستثارة، ثم خرجوا في وجل واحترام، وهم يعيشون واحدة من أهم لحظات انتصاراتهم.

أخذ علي علوان يقرأ المعوذات في تلقائيه وصمت، وهو يرفع ذراعيه ويمدّد ظهره على المقعد. دعاه الضابط الشاب للدخول. اقتاده جنديان اعتادت سواعدهما على أداء التحية وتنفيذ الأوامر دون أدنى

نقاش، إلى حجرة القاضي الذي جلس على مقعد جلدي أخضر، خلف مكتب تكدست فوقه الكتب مشكلة تصميماً هندسياً أشبه بعمارة ذات طوابق متعددة.

جاءه صوت القاضي ثابتاً وصبوراً: ما شاء الله يا رقيب علي علوان، ما هذا الجسد الرياضي الجميل! أصابته الملاحظة، غير المتوقعة بالخجل. كان لا بد من قراءة المعوذات مرة أخرى، رد علي بتواضع: إنها التمارين سيدي. أمره القاضي بشرح تفاصيل حادثته باختصار، فاشتعلت عيناه بالظلم وهو ينثر الحادثة الفارقة في حياته بتفاصيلها المملة، معرجاً على الصراع المعلن بينه وبين الرائد صلاح بشكل شبه يومي، والسنتين اللتين قضاهما بين أسلاك المعسكر في خدمته، شارحاً كيف قرر أن يصفي حسابه بطريقته.

استمع إليه القاضي وهو يسند خدّه براحة يده. ولما أنهى علي حكايته، قال منكفئاً يقرأ أوراقاً أمامه: تملك نوط الشجاعة يا رقيب علي! تنفس علي في بطء وقال في استسلام: نعم سيدي. أطرق القاضي لحظة، ثم رفع رأسه قائلاً: إطاعة الأوامر خير الطرق للاستمرار في العسكرية. إن تصرفك الخشن مع رتبة أعلى منك، عمل مشين. انبرى علي فجأة: لقد كان هو السبب سيدي، فرفع القاضي كفه يسكته، ثم أكمل:

– النهايات الأخيرة في كل ما نفعل، هي مربط الفرس. من العار أيها الرقيب أن تنهي مسيرتك، بطريقة كهذه. إن كل القرائن تدينك.

اعتدل علي علوان في وقفته، مطلقاً جملة قذف بها قلبه المرتجف، إلى لسانه المتلعثم: إن في ساقي شريحة معدنية، سأحملها معي حتى القبر. لم يكن لدى القاضي استعداد لسماع رأي شخصي من حزين مثله، فسأله: هل أنت نادم على ما فعلته بوكيل السجن يا رقيب علي! هزّ علي علوان كتفيه، بلا مبالاة. أعاد القاضي سؤاله، وهو يقرأ في تمعن: هل أنت نادم على ما فعلته بوكيل السجن؟ خفق قلب علي لوهلة، حاول أن يصطنع الشجاعة، فهزّ رأسه نافياً وهو يقول: لست نادماً أبداً، ولو عدت إلى السجن سأكرّر ما فعلت.

وضع القاضي الأوراق من يديه، نظر إلى سقف الغرفة، ثم إلى وجه علي علوان قائلاً: من المحزن فعلاً الاستغناء عن رقيب مثلك. لكني مضطر إلى تسريحك، وبلا حقوق نهاية خدمة. انصراف.

اخترق الحُكم أضلع علي علوان كسكين باغتته في زقاق مظلم. عقدت المفاجأة حواسه، ادلهمت الظلمة من حوله، واصبحت الأشياء شبه أطياف. ارتعش وهو يصرخ بألم، فتحولت صرخته إلى مشروع سؤال: وإلى أين أذهب سيدي!

عاد علي علوان إلى غرفة الضابط المناوب، والغل باد على ملامحه. لم يتردد في سبّ كل من يخطر بباله، متمنياً الهلاك للقاضي في أسرع وقت. دخل خليل إلى الغرفة باندفاع أدهش الجنديين الحارسين، فانسحبا إلى الخلف متهيّبين، ملتصقين بالجدار.

سأل خليل علي: ماذا حصل! تاهت نظرات الأخير، خشي أن

يتمادى في الكلام فيرتجف صوته وينفضح ارتباكه. ابتسم بيأس قائلاً: لقد انتهيت يا خليل...انتهيت.

اجتاز علي علوان، متحاملاً، بوابة السجن الرئيسية، كأنه يهرب من المكان كله، ولا يرغب في العودة إليه. اصطدم بعشوائية الشارع، أشار إلى أول عربة أجرة قابلته، وألقى فيها جسده. فرّت نظراته إلى الأفق البعيد، تأمل بقايا النهار، شاعراً بإحباط من نالته الضربة.

استرجع في ذهنه المواقف التي واجهته، وغصّة تسريحه التي سقطت على تلافيف قلبه، غمرته، اعتصرته. ابتهل إلى ربه أن ينهي يومه بسلام، بعد أن قرر مصارحة أهله بحقيقة تسريحه بإحسان من العسكرية. انتزعه من انسجامه مع نفسه صوت السائق الذي حاول عبثاً مد جسور التواصل.

أطلت بيوت الحارة بأنفة زائفة، وسط الفيلات الحديثة. ولجت العربة مسالك عتيقة تعج بنسوة وجلات، متلفحات بالسواد، غارقات في الحشمة. انعطف السائق بعربته، اجتاز ممراً ضيقاً، ثم دخل قلب الحارة الموبوءة بالغبار والمسغبة.

عند الغروب، نزل علي من العربة جاذباً سرواله لأعلى. بدا كل شيء ساكناً عدا صبية يلعبون الكرة، تدافعوا نحوه، فرحين هاتفين لوقوعهم على فرصة جديدة للهو. اصطدمت عينا علي بطباخ الأعراس مبارك، زوج أم سيد، فأسرع في خطاه يتحاشاه. كان مبارك ينظر متربصاً،

تسبقه لهفة الفضول، لمعرفة القادم من المجهول. مدّ علي من مشيته، بينما كاد مبارك يحفر الأرض بخطواته، متقدماً نحوه بقدر ما يستطيع من سرعة سنيه الستين. أبطأ علي وتلقاه بفتور، صافحه، اتقاء لشرّه، فاحتضن مبارك يد علي علوان بعزيمة لم يتوقعها، مطوقاً إياها بأصابعه الغليظة بإحكام، ومتجاهلاً محاولاته المتكررة الإفلات. ابتسم مبارك، فظهر صف أسنانه المغلف بالذهب، ثم سأل بجموح:

- كيف حال البطل علي؟

- الحمدلله، يا عم مبارك.

سأله بحدة:

- ماذا حل بصديقك حامد، هه؟

وحرك يده إلى جوار رأسه، ساخراً، متابعاً: أصابه الخبل، هه؟

ضربت كلماته أذني علي كالمطرقة. ارتج رأسه، فتمتم بضعف: لا تنكأ الجراح يا عم مبارك أرجوك، فالمسكين لم ينل من الحرب سوى الأهوال. انفجر طباخ الأعراس بالضحك، بينما أسرع علي مبتعداً، شاتماً في سره، متسائلاً عن سر الحقد الذي ملأ نفس الطباخ، فأصبح وسماً ملازماً له طيلة سني حياته. مبارك هو الشخص الذي ساق لأهل الحارة خبر احتلال العراق للكويت، يومها فتح علي عينيه على غمامة حزن أطبقت على الناس والمكان وانعكست على سلوكهم وتصرفاتهم، فغدوا أكثر نزقاً وتوتراً.

أكمل علي سيره بخطى ثابتة وقلب مرتبك. شدّ سلكاً مربوطاً على

القفل، يُسهل للداخل فتح الباب. اجتاز فناء البيت، متجنباً الخوض في مياه آسنة، وقطع غسيل منشورة على الحبال. استقبلته بوبي بنباحها، مندفعة نحوه، متمسحة بين قدميه. حضنها مداعباً ورابتاً على ظهرها، ثم سحبها إلى الداخل. سار في اتجاه حجرة أبيه، صفعته رائحة رطوبة وعفونة، فاتجه مسرعاً إلى النافذة، يشرع درفتيها، قبل أن يجلس بجوار حطام بشري يصارع بأنفاسه المتقطعة لإدخال الهواء إلى رئتيه.

كان الحاج علوان مستلقياً على فراش في زاوية غرفته، ناظراً أمامه في سكون، فوقه تتكدس أغطية صوفية. حين أحسّ بقدوم علي، سحب يده المنمشة بصعوبة، قبلها علي برفق، داعب لحية أبيه النابتة، ماسحاً دمعة فرّت من عين العجوز. وما هي إلا ثوان حتى دخلت أمه، واحتضنته، ووقفت تحدق فيه بما تبقى لديها من بصيص، وهي تمسك وجهه بين كفيها قلقة، بعد أن لمحت آثار الجدري عليه. ثم ظهرت أختاه اللتان زينتا وجهيهما بخليط من مساحيق ملونة. بادل علي الجميع لطيف العبارات، واسترسل شارحاً كيف قضى فترة غيابة، في تمرين شرس على الحدود.

استأذنهم الذهاب لتغيير ملابسه العسكرية. دخل حجرته، ودارت عيناه في فضائها المحتقن بالهواء الرطب. تأمل أثاثها المألوف، صورته المؤطرة بإطار ذهبي ثمين، بذلته المموهة المعلقة في ركن الحجرة، واجتاحه شعور الذنب. مرّ بأنامله فوق البذلة كأنه يستشف ملمس بندقيته، قوتها، نقاط ضعفها. أدار جهاز التكييف، ثم انحنى يخلع

حذاءه. جورباه رطبان، لزجان، تنبعث منهما رائحة شديدة النتن. أكمل خلع ملابسه، ودخل الحمام. انسكبت فوقه مياه ساخنه غمرت جلده وروحه. فرك جسده مزيلاً مخلفات سجنه، وعلامات حجزه، واستجوابه.

خرج من الحمام وارتدى ملابسه. تحلّق الجميع حول الحاج، وعلي معهم يحتسون أكواب القهوة. كان علي متيقناً أن سره سيكشف، طال الزمن أم قصر، لذا فقد اختزل كل الحكاية في كلمات قليلة، بعد أن تنحنح مستحوذاً على انتباههم، وقاذفاً نبأ تسريحه من العسكرية في وجوههم.

ندّت من أمه آهة مكتومة، هزّت رأسها والدهشة تستولي على حواسها، وحنت رأسها دون أن تنطق. علت وجهي أختيه سيماء الدهشة والعجب. حدّق ثانية في أمه، وواصل حديثه، غاضاً الطرف عن ردود فعلهن:

- سأبدأ من الغد البحث عن عمل.

ثم نهض كالضرغام الجريح مردداً : نعم سأبدأ من الغد.

عاد علي إلى حجرته وتمدد على السرير. داهمته غفوة أخذته إلى عالم الأحلام. أتاه مشهد الجندي الذي انسكبت أمعاؤه على الأرض معفرة بدمائه. وبعد ساعة من الأحلام المضطربة، أجفل من طرقات على باب حجرته. كانت أخته فاطمة تبلغه بزيارة جسار، الصديق الذي اعتادوا حضوره من دون مراسيم، والذي علم بعودة علي من أطفال الحي.

دفع علي الغطاء عنه وجلس على حافة السرير، محاولاً لملمة شظايا عالمه الخاص. غشيته رائحة بخور قادمة من فناء الصالة، وصوت إيقاع هاون حديدي. ساق خطواته المتكاسلة إلى الحمام، ثم إلى المجلس الذي تعطر برائحة بخور رائق، شتتته سرعة دوران مروحة السقف. احتضنه جسار بوجهه المنغولي، وصخبه وضجيجه وأحاديثه التي لا تنتهي، ثم جلس مسترخياً على وسائد صوفية مزركشة صفّت داخل المجلس أسفل جدرانه الأربعة، بينما جلس علي مواجهاً صديقه.

نفث جسار دخان سيجارته بتناغم وسط نوبات سعال داهمته، سارداً يوميات لهاثه وراء لقمة العيش، من طلوع الشمس حتى فيلم المساء والسهرة. وحين لاحظ آثار بصمات الجدري على وجه علي، أطلت البلاهة من عينيه متسائلة: ما هذا ! ماذا حل بوجهك! عطس علي بقوة، وأجاب وهو يدعك أنفه دعكاً شديداً: لقد أصبت بالجدري.

وضع علي علوان كفه على خده متنهداً، بينما ظل جسار يناوشه بأسئلة حائرة، موغلاً في الحديث عن حامد. حكى له كل ما لم يعرفه أثناء غيابه، وكيف جعل الصمت حامد تمثالاً من الشمع ممسوح التضاريس. كيف مرّت أيامه سوداء ثقيلة، حتى صارت صلته بالواقع مقطوعة. جافاه النوم، عافت نفسه الطعام والشراب، وصارت أحواله وأخباره في قلعته المنعزلة، تحظى بفضول أهل الحارة ومتابعتهم.

قال علي بصوت ضعيف:

- جسار، لقد سُرحت من العسكرية، أخيراً استعدت حريتي.

ظل جسار مسترخياً، يغشاه دخان سجائر يتنشقه بملء صدره. تمعن علي في صديقه ملياً، ثم أعاد عليه الخبر. مبتسماً أجاب جسار بتهكم:

- صحيح، نعم صحيح.

قال علي متململاً من غبائه:

- أقسم لك بأني أقول الحقيقة.

فصاح جسار وقد استوعب:

- الحمدلله، ألم تكن تحلم بالتخلص من القيود والالتزامات في وظيفتك.. هيا، هيا نحتفل، لنذهب إلى النادي.

- حسناً، لكن لابد أن نتناول وجبة العشاء أولاً.

سمعا طرقاً خفيفاً على الباب، وأتاهما صوت يؤكد أن الطعام جهز. تناول علي الأوعية النحاسية من أخته ووضعها أرضاً، فتقدم منها جسار بفرح طفولي، ثم أخذا يلوكان قطع الرغيف المحلى بالعسل بشهية كبيرة. كان علي ينتظر العشاء بفارغ صبر، حتى يشبع من جوع استمر سبع ليال.

★

تلبدت السماء بغيوم داكنة أتت بها رياح نادرة الهبوب. أحس علي علوان بحركة غريبة عند خروجه مع جسار من البيت، استدار ناظراً حوله في الظلام، فأتته أصوات مبهمة قادمة من الساحة الرحبة للمسجد. رأى المطوع، أو الشيخ مازن – كما يحلو لعصبته وأنصاره أن يطلقوا عليه– قادماً ناحيته، متلفعاً غترته المغسولة بماء زمزم – كما يدعي دوماً–، مداعباً حبات مسبحته، كأنه يحصي ما كنز من أموال أهالٍ تسكنهم الخرافة ويتلبسهم هاجس الجن.

رمى الشيخ عليهما السلام بلهجة التبجيل. رد جسار بأحسن منها، بينما وخزه علي بنظرة حارقة، وردّ بشيء من عدائية: أهلاً يا شيخ مازن.

- أهلاً أبنائي ... كيف حال الحاج علوان يا علي.
- الحمدلله، بخير... شكراً يا شيخ على السؤال.

بعينيه الجرذيتين، طلب منهما الشيخ الحضور لسماع محاضرة في الجامع، فهو لم يرهما هناك منذ فترة، ثم أوقف تيار كلماته المعسولة، ملتفتاً إلى علي علوان الذي لم يسع يوماً إلى سماع مواعظ لا يفطنها، فلم يتمالك علي نفسه من القول بفجاجة:

- نحن على عجله من أمرنا الآن... سنحضر لاحقاً.

صمت الشيخ مازن على مضض، وانصرف إلى صلاته التي كان يتهيأ لها.

أدار جسار محرك السيارة دون أن يتكلم. كان علي يمقت الشيخ، الذي ظهر في الحارة فجأة كنبت شيطاني. كانت الثامنة مساء حين انطلقا وحين بدأ المطر ينهمر. سأل جسار: لماذا كنت قاسياً على الشيخ! صمت علي كأن السؤال لا يعنيه. أطرق كأنه يخشى أن يرى صديقه في وجهه، أثر سؤال نكأ به جرحاً قديماً. تنهد بحزن، كأنه يواري جراحه. حامت في خاطره صورة ديفيد، وكيف صار عداء المطوع له راسخاً، دون أن يرتكب أي ذنب، سوى أنه أشقر. ظل جسار يتحدث، وعلي لا يسمع، مردداً في سره: لتذهب كلمات المطوع التي يصدعنا بها كل جمعة عن الاستقامة، إلى الجحيم.

أفاق علي من شروده على صوت رنين هاتف جسار، الشبيه بخوار بقرة. ها هما قد وصلا، ركن جسار السيارة وترجلا.

اختارا ركناً هادئاً ينزويان فيه، طاولة ذات بانوراما تطل على الخليج. بحث علي بعينيه عن توماس، البارمان الذي لطالما أحس نحوه بالألفة، منذ عرفت قدماه النادي. رآه يجفف كوب نبيذ بوشاح قماش. تبادلا النظر، أعطى توماس توجيهاته لأحد فدائييه لخدمة الطاولة، تقدم الجرسون بلباسه الأنيق، وربطة عنقه، سائلاً بأدب عن طلبهما.

- بلاك ليبل مخفف بالصودا.

هز الجرسون رأسه، وشيعهما بابتسامة رضية.

كان البار مزدحماً برواد ترتسم على ملامحهم أعلى درجات الانشراح، يتمايلون تحت سطوة نغمات سالسا لاتينية. أحضر الجرسون طلبهما، مضيفاً شرائح ليمون على حافة الكأس. تناول علي كأسه ورفعه تجاه جسار، تشيرز، ثم أخذ يسرد تفاصيل غيابه المفاجئ، بينما أنامل جسار تغوص في إناء صغير يحوي مكسرات.

سأل علي فجأة:

- جسار، اتعرف من التقيت في السجن!

- من !

- خليل.

- أي خليل!

- خليل، صديقنا القديم الذي غادر الحارة مع أهله.

أسند جسار ظهره إلى الأريكة، مرت في رأسه عشرات الصور، تقصد خليل أخا عامر! أشار علي بالإيجاب. تناول جسار من الطاولة علبة سجائره، اشعل سيجارة وقدمها لعلي، واشعل أخرى لنفسه. لم تسعفه الكلمات فقال مستغرباً، معقول!

كرع كل منهما كأسه بتلذذ. تجشأ جسار بصوت كهزيم الرعد، وفاحت منه رائحة خمر قوية. شعر برغبة ملحة في التبول، فنهض يخنقه الفائض من وزنه، وسار مترنحاً، محشواً بالويسكي والبلاهة. ظل علي قابعاً في مكانه، غارقاً في صمته، مستمتعاً بالنظر إلى نقر

حبات المطر على الزجاج. أمواج من الصور اجتاحت ذهنه، سفر ديفيد وأيضاً الكوتش بعد انتهاء عقديهما، صور هروبه كل مساء من المدرسة العسكرية خلسة، ووصوله إلى النادي مقطوع الأنفاس، البطولة وكيف كان يتحكم بضرباته ويأسر جمهوره الذي صفق له وكأنه ملك، ثم مأساته الخاصة التي يبدو أن الخمر اثارتها في رأسه.

أخرج هاتفه متفحصاً لائحة الأرقام، راغباً بمهاتفة سلمى. تذكّر أنها كانت تتوخى الحذر في علاقتهما. أزاح الهاتف جانباً، لاعناً أم سيد وزوجها طباخ الأعراس اللذين هيآ جواً معادياً لها في الحارة. نقل عينيه في الأرجاء حتى استقرتا على ناتالي، الشابة البريطانية التي تمنح وقتها وجسدها بسخاء لرواد البار. رمقها بفضول وهي التي لاحقته طوال السهرة بنظراتها لعله يمنحها اشارة القبول، ثم تغاضى عنها وقد وطّن نفسه على العيش في غنى عن كل أنواع النساء، عدا سلمى.

عاد جسار، واستمرت مسامرتهما حتى مجيء الصباح. دلق علي ما تبقى من الكأس الرابع في جوفه، وأشار لتوماس بإحضار الفاتورة. حضر الجرسون، فنقده اكرامية سخية، ثم حمل جسده بصعوبة. غادر الصديقان منتشيين بعد أن بلغ بهما الإعياء أشده.

أمام منزله، قرّب علي يده من فمه ليتبين إذا كانت رائحة الخمر تفوح، ثم نزل من العربة، محاولاً ان يعيد لجسده ايقاعه المعهود. مضى متوخياً عيون الناس، وصل حجرته، ثم غرق في سبات عميق.

★

بفضل أم سيد، تصدر خبر تسريح علي علوان النشرة الصباحية في الحارة. نهض علي في العاشرة والصداع لا يفارقه، بعد ليلة كابد فيها الكوابيس. كانت السيجارة أول ما بدأ به يومه. أنهى روتينه المعتاد في الحمام، ودخل حجرة الحاج علوان الذي كان يئن أنيناً مؤلماً موحشاً وقد ضاق صدره بهواء صارعت رئتاه لإدخاله. نظر علي إلى أمه بحنو، يشوبه أسى، وهي جالسة بجوار الحاج، بوجهها الراضي دوماً بقضاء الله وقدره، تخرج منها همهمات التسابيح، تدير مسبحتها بيدها الراعشة، وتحرر ضفيرة غطت ظهرها. ربت علي على يد الحاج بلطف، وحمله ودخل به الحمام، حيث أفرغ كيس القسطرة من البول وأعاد تركيبه.

نادته فاطمة إلى المطبخ، حمّصت حبات البن على صفيحة فولاذ خاصة ودقتها، ووضعت الطعام والقهوة أمامه على الأرض. تناول علي طعامه مكتفياً بالبيض دون أن يثلم الرغيف، ارتشف فنجان القهوة ونهض. كان ملزماً بالذهاب إلى المعسكر لتسليم عهدته.

وضع عدته العسكرية في عربته، وتوجه إلى مستودع يحرسه

عسكري هزيل معذب، يقف في الشمس ساعات، بلا هدف. أنهى إجراءاته الروتينية، وغادر المعسكر مطأطىء الرأس.

في بيته، غفا بعد الغداء وحتى صلاة العصر. وحين استفاق، أمسك بسماعة الهاتف البيتي، مديراً قرصه. أتاه صوت سلمى، فساد الصمت فترة، كأن كلاً منهما يكتشف الآخر. مساء الخير همست، وقد هزها صوته من الأعماق:

- هل الوقت مناسب لزيارة حامد !
- نعم، تفضل، سأخبره بقدومك.

سار علي في الدرب الذي سلكته قدماه منذ سنين، متمنياً ألا يراه أحد، حتى لا يقرأ الحنين في ثنايا عينيه. تبعته بوبي تستميت للحاق به. طرق الباب، دخل متهيباً إلى الصالة، ناظراً الى سلمى وقلبه يخفق بشدة. ابتسم برقة قائلاً بهدوء وبشيء من الشعور بالذنب: مساء الخير، ثم أشاح بوجهه لائذاً بالصمت، كأن الكلام من المحظورات التي تم الاتفاق بينهما على تحاشيها.

مشى علي وهو يشعر بعينيها تلمسان ظهره، تمرّان على كتفيه، تداعبان ذراعيه. وصل إلى غرفه حامد المندسة في زقاق ضيق لا تصله الشمس. أدار قبضة الباب بحذر ودخل إلى العتمة، أضاء النور وزفر مذهولاً من رائحة طعام اختلطت بروائح أدوية تملأ الحجرة. استدار بكامل جذعه ينادي سلمى، ويأمرها أن تفتح النافذة، وتبخر المكان.

دخلت سلمى على أطراف أصابعها بخطوات سريعة، مديرة

مصراع النافذة، في حين سار علي إلى حيث تمدد حامد على الأرض، مطوقاً رأسه بيديه، فحمله وانتصب بصعوبة. بدا حامد سهل الانقياد، وتحت تأثير المهدئات، أجلسه على حافة السرير، وسأله متكلفاً الهدوء: ما بك يا حامد!

كانت عينا حامد غائرتين في تجويف جمجمته، تحملان معاني من الصعب ادراكها. ظل محدقاً ساهماً في الفراغ، قبل ان يرد بخذلان وانهزام :

- سممتني الحبوب، جوفي يحترق... يئست من رحلتي الأسبوعية بين أطباء الأعصاب يا علي.

عادت سلمى وهي تحمل مبخرة من الفخار وضعتها على الطاولة. هرب حامد بنظراته، ساهماً متجاهلاً، إيقاع اللحظة. انبعث منه صوت غبن دفين وهو يشير إلى خارج النافذة:

- الملاعين يتحدثون عن جنوني، إنهم يتمنون نهاية مزرية لقصتي البائسة.

قال علي وهو يمسك بكتفي حامد، ويشدهما بقوة: لا عليك منهم... أنت بخير يا حامد. رشقه حامد بنظرة كالاتهام، كاللوم، كالعتاب:

- هل جربت أن تكون منبوذاً يا علي! منبوذاً من أهل حارتك... هل لاحظت ذباب الصحراء ذا المؤخرة الخضراء السمينة، يقف على الجثث...

حاول علي تهدئته، إلا أنه انجرف هائماً في هلوسة غير واضحة الكلمات. احتضنه علي، ومدده على السرير، وبقي بجانبه حتى عاد يتنفس ببطء واسترخاء.

حين خرج علي علوان من بيت حامد، كان قد كبر عشرات السنين. قرر عدم الذهاب إلى النادي. لكن كلما فترت همته أو لانت نفسه وتقاعست عن التمارين، ظهر له طيف الكوتش. أخذ دشاً بارداً وارتدى ملابس رياضية خفيفة، وتوجه كعادته إلى النادي لأداء التمارين، واستعاده توازنه.

★

استكان علي علوان في البطالة، أصبح كائناً ليلياً، يسوقه ظمأه كل مساء إلى البار. في أحد الأيام، بعد مغيب شمس يوم حار، ساكن الهواء، توقفت سيارة فارهة، ذات زجاج داكن، لا يشتريها سوى أعتى الأغنياء، أمام الباب الخارجي لبيت الحاج علوان، ونزل منها شاب، تهفهف رائحة عطره الثمين من ثنايا ملابسه الأنيقة. التفّ حوله الصبية كأنه مخلوق عجيب يشاهدونه لأول مرة، ومدّ كل منهم يده للسلام بلهفة وبراءة. طلب الشاب بعجرفة من أحد الصبية أن يسبقه إلى منزل الحاج علوان، لإعلام علي بقدومه، ثم قاده آخر، بركبتين مليئتين بالكدمات، إلى مدخل الدار. قوّس الشاب قامته الرشيقة وولج بوابة حديدية سوداء. دلف بثقة تبخرت على الفور، قال وهو يدير رأسه بشيء من الاشمئزاز: قبح الله الفقر.

تقدم إلى صحن الدار، نبحت بوبي محذرة، فنهرها الصبي. اجتازا قطع الحطب حتى وصلا باب المجلس، أشعل الصبي الأضواء، ثم ولى، طارقاً حجرة علي.

خرج علي من الحمام، والماء يقطر من وجهه ويديه. تناول

منشفته المفروشة على طرف السرير وبدأ يمسح وجهه، متسائلاً من عساه يكون الطارق. أخبره الصبي بوجود ضيف في المجلس، سأل علي من يكون، فرد الصبي لا أعلم.

أنهى علي ارتداء ملابسه ودخل المجلس. عقدت المفاجأة حواسه حين وقع بصره على شخص لم يتوقع وجوده على الإطلاق في هذا المكان. خليل! خليل الغاويات!! أخذه في أحضانه، مردداً بصوت غيبته الأيام: أهلاً وسهلاً، خليل.

كان خليل شديد الاعتناء بمظهره، خاصة بلحيته التي شذبت بعناية. قال شارحاً أن عليه أن يتواءم مع ما كان، وما أصبح عليه، ففي عالم الكبار، يجب للملابس أن تكون ناصعة دوماً. ناوله علي وسادة يتكئ عليها، أشعل خليل سيجارة، بينما طلب علي شاياً، مع تهيئة العشاء، واتصل بجسار، طالباً حضوره على الفور.

ظل خليل يحتسي الشاي ببطء، حتى دخل عليهما جسار. أمعن النظر في خليل للحظات، ثم صرخ وضربة المفاجأة تنطق من عينيه: خلييييل. فرد ذراعيه معانقاً، متسائلاً، أي ريح طيبه أتت بك.

تعانقوا ثلاثتهم، ثم ارتموا بغير تكلف، على الوسادات الملونة، وأخذوا يتذكرون تفاصيل التفاصيل، عن أيام البراءة والسعادة المندثرة.

بعد مضي ساعة، شمروا عن سواعدهم، وتتابعت أيديهم على الأطباق بنهم. أخذ من بعدها جسار زمام الحديث، مقتحماً سمع خليل بكلام غريب عن حامد، وهو يعبث بعود كبريت بين أسنانه. وقف

خليل طالباً السلام على الحاج علوان. أدخله علي ثم اقترب من أبيه واضعاً يده كبوق على أذنه، صارخاً: هذا خليل... انحنى خليل على يد الحاج مقبلاً، في حين باركته أم علي بأدعيتها. ثم طلب زيارة حامد. أقنعه علي أن الوقت متأخر جداً ولا بد من تأجيل الزيارة إلى يوم آخر. قبل مغادرته، بادر إلى إخراج ورقة من جيبه، سطر عليها رقماً، وأعطاها لعلي: اتصل بهذا الشخص، سيساعدك في الحصول على وظيفة.

دارت الأيام، وبفضل تزكية خليل، نجح علي علوان في اجتياز مناظرة لوظيفة في إحدى المؤسسات. انتابه حينها احساس أنه يستعيد زمام حياته.

★

بدأ علي علوان أسبوعه الأول في عمله الجديد، بأحلام عريضة وثقة لا حدود لها. أخذه موظف في جولة بين المكاتب، للالتقاء بزملاء من ثقافات وجنسيات ومعتقدات متباينة، عكست ابتساماتهم عالمهم الوديع حيث يعيشون. جال علي بعينيه وسط الجموع، محاولاً التكيف مع عالمه الجديد. ثارت حوله تساؤلات وحامت علامات استفهام، كأنه سيكتسح الأجواء ويهدد الزملاء في أرزاقهم.

صار المراسل – بابو – الذي يتحرك كالمكوك أمام الجميع، ملبياً كل الاحتياجات، جزءاً من عالمه الضيق. علم منه أن الأمر والكلمة العليا، في المؤسسة من اختصاص الدكتورة دلال، التي يتحدث عنها الجميع باستمرار، وكأنها فاكهة نادرة، وماسة ثمينة.

في اسبوعه التالي، طلبت الدكتورة دلال من طاقم مكتبها، بلهجة إنجليزية تتكسر فوق رنين لهجتها الأصلية، استدعاء علي علوان وإحضار ملفه الخاص. عادت السكرتيرة حاملة ملفاً التقطته الدكتورة بأطراف أصابعها، مشمئزةً، كأنه مجذوم تخشى انتقال عدواه. بعد دقائق لا تزيد على العشر، ووسط عيون متلصصة، مضى الشاب

المفتول العضلات، باتجاه مكتب المدير العام. أجلسته السكرتيرة في غرفة الانتظار، ثم جاءه نداء الدخول. نهض علي مطقطقاً فقرات رقبته بلياقة مدروسة، دخل مليئاً بالثقة والتفاؤل، وحيا بلباقة.

بدت الدكتورة متعالية، متأففة، حازمة النظرة، منعها كبرياؤها أن تطلب منه الجلوس، أو أن تبدي اهتماماً بآداب الضيافة. أصلحت الإطار الاكاديمي على وجهها، وتكلمت بثقة، محددة أركان علاقتها معه كأحد رعاياها، ومتوقعة منه الولاء والطاعة. أصاب علي علوان الضجر وهو يسمع منها كلاماً، عن شرف الانتماء، ونبل الرسالة، ورؤية المؤسسة. تمعن فيها ملياً. إنها في الأربعينات، من نوع الجسد يدعوك، والوجه يصدك، والنوع الذي لا يسعى إلى إضفاء محسنات أناقة على مظهره الشخصي.

بنظرة عابرة، سألته الدكتورة عن خبراته السابقة! أجابها مستهجناً، كأنه يرفض السؤال:

- خبرتي القتال.

هزّت رأسها متأففة:

- أقصد خبرتك الإدارية... في مجال الإدارة يعني.

- متوسط الخبرة... كنت أقضي أغلب الوقت، في تمارين خارج المكاتب.

صمتت الدكتورة برهة، ثم سألت في محاولة لبعثرة كرامته :

- نعم، أخبروني أنك كنت عسكرياً... لماذا فصلوك، سوء سلوك؟

لم يكن علي علوان متحمساً لهتك ستار الجانب شديد القسوة من حياته، أجاب باقتضاب :

- كثرة الغياب... لظروف عائلية.

بدأت أصابع الدكتورة تنقر المكتب بعصبية. تيقنت، من نبرة صوته، بأنه يكذب وأن شيئاً مريباً حصل في حياته. قُرع الباب فجأة، وهرعت السكرتيرة إلى الداخل. أسرّت إلى الدكتورة بأمر ما، فنهضت الأخيرة على عجل قائلة:

- انكردبل، يا ربي، معقول هذا الكلام! ثم التفتت إلى علي: سنتحدث فيما بعد.

وقبل أن يخرج، أوكلت إليه مهمة تدقيق سجلات جميع الموظفين. قلب لها شفته السفلى، مغادراً دون اكتراث، عائداً إلى مكتبه، بجانب القاعة التي يقضي فيها الموظفون الصلاة.

كانت دوافع الاكتشاف لدى علي، أقوى من نوازع الخشية والتوجّس من الدكتورة وسطوتها. استدعى بابو، فأزاح ما كان عنه خافياً. اندفع بابو يضخّ كل ما يعرفه عن الدكتورة. كيف تعيش في ارتياح برجوازي، باعتبارها الشقيقة الوحيدة لأحد القليلين الذين يشيرون بيدهم فتتحقق الأحلام، وتنشق الأنهار لتسير فيها كل المراكب. لم يعرف بطنها النطفة، لانشغالها الدائم بالدراسة في الخارج. ولأن الاستعلاء يعصف بها بلا هوادة، استطاعت بدهاء القبض على مقاليد الأمور في المؤسسة، مؤلبة الموظفين بعضهم على بعض.

★

كانت عينا حامد ساهمتين، تواصلان التطلع إلى صورة والده أعلى الجدار، وهو يمسك بندقيته بيد، ويضع الأخرى على رأس خنجره. في المساء، شعر بخوف، تخيل أنه مطارد من قبل مقاتلين منتشرين في أركان المنزل، وخشي من وقوع قنابلهم. توجه إلى شنطة جلدية كبيرة ذات أقفال معدنية، وأخرج منها خوذة عسكرية. أقام متاريس وحواجز من الوسائد، في مختلف أرجاء البيت، وصار شرساً في تعامله مع سلمى.

زادت حدة نوبته، وحطم بقبضته مرآة الحمام. قامت سلمى تكنس أجزاء المرآة التي تهشمت، وهي تنظر إليه مباشرة، متذكرة نصيحة أم سيد، باللجوء إلى الشيخ مازن، المعالج العارف بملكوت الأمراض المستعصية. كان أملها أن تجد في تعاويذه وطلاسمه قبس حياة، لمرض أخيها الذي لا نظير له في فهارس الطب النفسي.

اليوم التالي، مع احتدام هجير قيلولة، استدعت الشيخ مازن الذي حضر تسبقه عدته. دخل الصالة متهيباً، قارعاً الباب، منيراً الحجرة، ومتفحصاً حامد المرتدي خوذته العسكرية. تقدم الشيخ تطوف على

شفتيه تمتمات تعاويذ، وسأل بخفوت: كيف حالك يا حامد! نظر إليه حامد بفزع، وأطل من عينيه بريق رعب، ارتجف جسده، غاب سواد عينيه، واصفرّت سحنته.

غرقت سلمى في الخشوع والرهبة، وهي ترى الشيخ يسير باتجاه عدته، منتهزاً فرصة التلصص خلسة، على خصلة ملساء فرّت من تحت وشاحها الأسود. أوقد النار، قبض من بخور اللبان قبضة قذفها على الجمر، فانطلق الدخان بكثافة. خطا نحو حامد ودثره ووضع المبخرة أسفله، فتسلل الدخان المتكاثف، متسرباً من الثقوب. تمتم الشيخ بكلمات مبهمة، جائلاً على الأرجاء بعينين حادتين، كأنه يخاطب أرواحاً خفية، هائمة، متجولة. ثم صرخ بصوت جهوري تردد صداه في أرجاء المكان: أخرج يا عدو الله.

غمر الدخان حامد مالئاً صدره، تلوى ألماً بينما الأصوات تملأ رأسه، وتمتمات الشيخ تنساب بلهجة تحذير ونهي. بدأ حامد يهذي، وراودته رغبة في التقيؤ. طلب منه الشيخ أن يتخطى المبخرة سبع مرات، جيئة وذهاباً، ثم ربط حجاباً حول زنده، موجهاً حديثه إلى سلمى:

- دعيه يبقي الحجاب أربعين ليلة قمرية... سيطرح البركة في ماء الحياة داخل ظهره.

استلقى حامد على السرير بلا حراك، متمتماً، كأنه يتلو لنفسه قصة قبل أن ينام. اقترب الشيخ مازن من سلمى، وهو يحكم ربط عمامته،

مبالغاً، متوددا، إلى جسدها المحتشد بالنداء، مغّلفاً لها النصائح على مضض: زوجوه، ربما يتحرك فيه العصب الميت. وفي مكر أصبح جزءاً من شخصيته، جال الشيخ ببصره مفتوناً بكيانها، عارضاً عليها الزواج. صفعتها الحيرة، حدقت فيه، وهي تهز رأسها والدهشة تستولي على حواسها. جرجرت أقدامها في جزع إلى حجرتها، وجلست خائفة ان يقتحم خلوتها.

سمع علي علوان جرس الهاتف المحمول. نظر إلى الرقم... كانت سلمى!! نبت الشك في رأسه، وساد الصمت بينهما للحظات، كأن كلاً منهما يتوقع شيئاً. أنبأته سلمى بخبر الشيخ مازن، ونظراته النهمة، وطلبه الزواج. ألحت في رجاء أن يحضر في الحال. استبدل علي ملابسه، وغادر متعجلاً، متوتراً، ليمنع شرور الكائن الساعي لإيذائها. تخيل نفسه يعدو نحو الشيخ، يصفعه صفعة تترك آثارها على نفسه إلى أبد الآبدين.

غادر الشيخ مازن البيت، واستقبلت سلمى علي كالمنقذ. شرحت له الموقف وفي عينيها آثار دموع جفّت. رأى في عينيها الألم الذي تسببت به أمها، الخلط الذي تعيشه كل يوم، بين همس النساء، ونظرات السخرية والتشفي، العتاب والشفقة.

كان علي علوان يتآكل من الداخل، ظل يذرع الصالة جيئة وذهاباً، ككبش هائج. تثاقلت بعدها خطاه خارجة من بيت سلمى، يشمله حنق خانق. ظل يدخن سجائره بغزارة، داعياً بالهلاك، متوعداً الشيخ الذي أتاه صوته فجأة، من سماعات الجامع وهو في ركعته الأولى.

★

لأسابيع عدة، كان علي علوان لا يفعل شيء سوى الحضور، وتدقيق بعض الملفات، وقراءة الجرائد، ثم الانصراف. أحسّ بمقت للوقت المهدور بين جنبات المكتب، وبين وجوه باردة افتقدت شهية العمل. موظفون يتثاءبون، يتثاقلون في استلام أوراق المراجعين، ناظرين إليهم في بلادة.

صار علي علوان وجلاً من أن تكون تحية الصباح مفتاحاً لعلاقة هو في غنى عنها، بعد أن لاحظ نظرات إعجاب مشفرة، ترسلها أعين موظفات عرّين أذرعهن وصدورهن. حذّره بابو من موظف لازمه عار حرفة الوشاية، يزاول التسكع بين المكاتب كمهنة أصلية، ولا يتورع عن أي شيء في سبيل التهرب من العمل والمسؤولية. رصدته عينا علي ذات صباح وهو يقترب، متصنعاً ابتسامة مفتعلة. كان التدخين محظوراً في أروقة المؤسسة، لذا خرج علي إلى الردهة الأمامية للمبنى حيث أمسك السيجارة وجلس صامتاً، ينفخ فيها بملل. خدش سكونه اقتراب الموظف، تبادلا التحية بالأعين، دون أن يجرؤ أحدهما على

الكلام. تمتم له الموظف بشيء لم يفهمه، التفت إليه علي متعجباً وقال: نعم؟ حادثه الموظف وكأنه يعرفه. سائلاً بتواضع كاذب:

- كم هي مغرورة الدكتورة دلال.

دق قلب علي بانفعال، تسللت عيناه في جميع الاتجاهات، رمقه بشك قائلاً، بحذر:

- دعك منها، ما هي في النهاية سوى أنثى.

غادر الموظف دون أن يتفوه بكلمة، وعاد علي يتابع عمله خلف مكتبه، واجماً، ضجراً بلا شغف، يقاطعه في شروده إما هاتف مكتبه، أو زميل يستفسر عن معاملة بعثها له منذ فترة.

مرت أيامه طويلة، متشابهة، وقد تأكد بأن نصف عمره سيضيع في المؤسسة، بينما سيقضي النصف الآخر في البحث عن سبب ضياعه! ظل ساعات يستمع، دون أن يتدخل، إلى حديث الموظفين عن عاصفة الصحراء. كان يحسّ في أعماقه، أنهم غير جديرين بالتحدث عن حرب لم يخاطروا فيها مثله.

طلبت الدكتورة دلال، صباح أحد الأيام، حضوره على عجل. التقط ملفاً، متصفحاً أوراقه ردحاً من الزمن، محاولاً اصطياد أية معلومات أو انتزاعها. أحس بأعين متلصصة، ترقبه بفضول وهو يقتحم مملكتها. استقبلته وهي تحمل كوباً ذا عروة من الألومنيوم، تحتسي فيه عصيراً صحياً خالياً من السكر. نهضت، مقتربة منه على استحياء، مدت يدها لتصافحه وهي تبحث عن عينيه، ودعته بصوت أنثوي مترع الدلال، مشيرة إلي مقعد: تفضل.

اتخذت مجلسها أمامه، وطلبت دون أن تسأله، شاياً ممزوجاً بالنعناع. انتبه علي إلى المساحيق التي وضعتها على وجهها، عطرها الأنثوي المسكر، وعباءتها التي أبهجته كذكر، وأغضبته كرجل شرقي. بعينين موجهتين إلى جسده، وذكورته، سألت عن حاله في المؤسسة.

- الحمدلله... لكن هناك بعض المخالفات.

مال علي بجذعه، واطلعها على الأوراق. نظرت إليه، والثورة عليه والشهوة تشتعل بداخلها. ابتسم بإحراج، كأنه فهم مراوغتها ونظراتها اللاهثة وراء الزواج. كان علي علوان مكشوفاً أمامها بشكل مفضوح، نظر حوله مرتبكاً، متبيناً إن كان أحد ينصت إليهما، ثم قال واجماً: علي العودة إلى المكتب، مردفاً وهو يهم بالقيام: أتمنى لك يوماً سعيداً، سيدتي.

استقل علي عربته ذلك اليوم، وهو يتذكر نظرات الدكتورة دلال، رائحة عطرها المميز... آه لو علمت سلمى لمزقتها، فغيرة النساء واحدة. في المساء، أحس بصداع يدور في رأسه، وبعد عودته من زيارة حامد، حضر جسار فأخبره علي كل ما شاهده وسمعه في المؤسسة.

في الصباح، مع انتظام الموظفين في مكاتبهم، تجوّلت الدكتورة دلال بين المكاتب، ومن حولها الجهاز المعاون. دلفت مكتب علي علوان بثقة، وأخذت تعاين المكان وتنقل بصرها إليه في حنكة، متسائلة، كي لا يظن أحد بها سوءاً، عن برنامجه اليومي في العمل.

غادرت بعدما أشبعت جرعتها اليومية من الحنين إليه، وندّت

منها ابتسامة اعجاب أرضت غروره. ألقى علي جريدة كانت بين يديه، متظاهراً ببحثه عن ملف فوق مكتبه، وتنهد بعمق، قائلاً في لا شعور: ما أقبح المرأة، صاحبة الأمر والنهي.

كانت الدكتورة تعرف كمية ضعفها حين تتحكم فيها طبيعتها. رغم أنها تضع الموظف بين أصابعها، تشكله كالصلصال، إلا أن علي علوان أربك حياتها. أضحت أسيرة جسده الرياضي الأنيق، وأصيبت بنشوة لم تعرفها يوماً، كأن جسدها قام وبعث بعد موت سنين. أعلنت الدكتورة الحرب وقررت ربحها، بل عزمت على تدمير هدفها، إذا لم تتملكه.

غرقت الدكتورة في بحر الأوهام، حتى أدمنت السباحة فيه. كانت تصرّ على بلوغ أبعد بقعة ممكنة في علاقتها معه. أشهرت أسلحة الغيرة، ظلت تتفحصه مع بداية، ونهاية ساعات العمل. كانت فرحتها بمشاهدته، لا تعادل أية فرحه أخرى في حياتها الناشفة. أدرك علي بخبرة الحياة بداية ملامح اللين تقترب، مدى سرعة انجذابها إليه، وبحثها عن الستر في زمن لا يرحم.

استدعته إلى مكتبها، تحدثت إليه بكلمات واثقة، وبينما الحديث يستهويها إلى أبعد الحدود، فاجأته: هل تتزوجني! نفر علي علوان من طلبها. لم يتملّقها، رد برغبة عارمة في إيذائها بأقصى درجة: لا رغبة لي في سلوك هذا الطريق، ثم ارتد إلى الباب، صافعاً إياه بقوة، عائداً إلى مكتبه، يشمله الرضى، بعد أن أيقن أن قنبلته أصابت قلب الهدف.

بعد تلك الواقعة، تحاشى كل منهما النظر إلى الآخر، صار الشعور بعدم الثقة بينهما متبادلاً إلى أقصى حد، إلى أن انفجر الصراع الخفي بينهما، وظلت شظاياه تتطاير بشكل شبه يومي، وعلى مر الشهور.

استشاطت الدكتورة دلال غضباً حين صارحها أحد الخونة الموالين، أن علي يحرّض الموظفين على عدم التهيب والاجلال في التعامل معها، وأن لا داعي للوقوف، كلما دخلت أو خرجت من المكتب. وبما أن لا شيء يثير أعصابها أكثر من أن يعارضها أحد، أو يتحداها على الملأ، أخذت تفرك أصابعها بعصبية، بعدما جردها علي علوان من هالة البطولة التي رسمتها في ميدان العمل، وهي المتعجرفة، المؤمنة بعلوها فوق الكائنات. اختفت من عينيها نظرات الفضول ولمعة الأمل، وقررت أن تثأر لهذا الضعف العابر.

دعت الدكتورة دلال، بشخصيتها الطاغية، الموظفين إلى تكوين جبهة ضد علي علوان. ازدادت التعليقات في المؤسسة، وارتفع اللغط وعلا صوت الشائعات. تفرق الموظفون إلى مجموعات صغيرة، واشتركوا في الهمس والتأليف. بين فكي كماشة، وقع علي علوان، لم يستطع تقدير مدى الشر الذي سيلحق به. تسربت إليه العيون، وانجرف الجميع مع تيار بغضه دون مبرر. وضعوا أمامه جبالاً من العقبات، وبحاراً من المحبطات، وترصدوه مع كل خطوة.

ظل علي متوجساً من مظاهر الإقصاء في المؤسسة، بعدما ظل مواظباً على عمله، مخلصاً في مؤسسة تزدري الإخلاص. بات لا

يستمتع بأي شيء تحت الضغط ، وظل يعاني السأم. شكّل الماضي عبئاً عليه، مقارنة بيومه، وعبثاً حاول ردم فجوة هائلة بين حياتيه العسكرية والمدنية. عذبته المقارنة بينهما. فجع بالحرية الممنوحة، فجيعته بالحرية المسلوبة. ظن أنه يستطيع مواصلة السير على نهجه العسكري القديم، لكنه وجد الطرق أمامه مغلقة. لم يستطع المضي أو تغيير نظرته للأشياء، أو الأحداث. لم يستطع الاندماج في المؤسسة بسهولة، خصومات مختلفة الاتجاهات، تتصارع على مناصب ومغانم تافهة. نسج عنكبوت الروتين خيوطه، فأصبح ليله ونهاره سواء. يجرجر نفسه بعد العمل إلى الفراش، ويستيقظ للذهاب إلى حامد، ثم النادي لمعاودة التمرين.

★

زوال يوم جمعة، تطورت حالة حامد من سيئ إلى أسوأ. داهمته نوبة جديدة، فتوجه إلى خزانة الأدوية، فتحها بعصبية بالغة، متناولاً كل ما وقعت عليه يده، وملأ بها فمه. سقط على الأرض وهو يضرب أذنيه بكفيه. تلوى كالثعبان، حتى شخص بصره في الفراغ. دخلت سلمى على صراخه، جالت بعينيها في جدران الصالة هامسة من بين دموعها: حامد... حامد، يا إلهي ماذا أفعل. أمسكت بهاتفها طالبة الإسعاف، وجلست تتأمله وهو ينازع صامتاً، متدثرة بعباءتها السوداء، ساهمة، كليمة، ترجو في قرارة نفسها ألا يكون مكروه قد ألمّ بأخيها.

حضر ثلاثة مسعفين، واجتمعوا عليه. كانت الأسلاك تتدلى من صدره، وآلة انعاش القلب الكهربائية، تصعقه على صدره ثلاث مرات. انتفض الجسد ثم همد، تحاور المسعفون في ما بينهم، ثم دثروه بشرشف أبيض.

كان علي علوان يتقلب في فراشه، ينساب إليه صوت نداء المغرب يُتلى في ترتيل منغوم ملأ نفسه بالخشوع وبمشاعر أمن وسكينة، حين

أتاه اتصال سلمى، وهي تجهش ببكاء صامت فيه مرارة. رنّ صوتها منهكاً عبر الهاتف: مات حامد...

صرخت سلمى، بما فيها من عزم، حتى تقاطر اليها الجيران. انزلقت من ألسنتهم دعوات مفخمة، تدعو له بالرحمة والمغفرة. تهامسوا، وتجادلوا، ثم قال كبيرهم: لتأخذه الإسعاف إلى المستشفى.

اخترق علي علوان الصفوف، هاله منظر الدمار الذي سيطر على الصالة. تطلع في الوجوه التي تحيط، في نصف دائرة، بجثة مسجاة على بساط في إحدى زوايا الحجرة. دنا علي، جثا على ركبتيه، أزاح الغطاء متأملاً وجه حامد. قبض على زنديه، هاتفاً بنشيج متقطع: حامد، ثم ارتمى بين أحضانه، وهو يضمه إليه. أطلق لنفسه محبس الألم، وأخذ صوت نحيبه يعلو، حتى أبكى من حوله.

علت الوجوه سيماء الحزن، وربتت أيد مواسية على كتفي علي علوان، قبل ان تلتقط الجثة، وتضعها في سيارة الإسعاف التي نقلتها الى المستشفى العام.

تواترت أنباء موت حامد بفضل مركز التلقي أم سيد، التي دوماً تصلها الأخبار من مصادرها المتخصصة، تزودها، وتتزود منها. انتقل علي وجسار وخليل إلى المشرحة، حيث تقرر دفن حامد في اليوم التالي، بعد حصولهم على تصريح الدفن.

وضع حامد تحت ملاءة بيضاء. مددوه على منضدة معدنية باردة، غسلوه، وفاحت في الأرجاء رائحة الحنوط. حملوه كأنهم يحملون

أوزارهم فوق أعناقهم، في اتجاه الحارة، حيث رغبت سلمى برؤيته وتوديعه قبل دفنه. انتصب أهل الحارة، بعد صلاة العصر، خلف الجثمان، بغية أداء صلاه الجنازة، وغادر النعش الحارة كطيف عابر، أمام نظرات شيوخ يلوكون الصبر والصمت، كأنهم شركاء في إثم عظيم.

تقدم المشيعون في مشهد حزين صامت إلى المدافن، ترافقهم ندف صغيرة من السحب. قاموا بتجهيز القبر، ثم وسدوا حامد مضجعه الأخير، ورفعوا الأكف إلى السماء، يدعون بورع المتقين. بعد إكمال مهمتهم المقدسة في اكرام الميت، قفلوا عائدين.

مساء الفجيعة، احترمت الحارة أصحاب الأصل المجهول. صار حامد عزيزاً عليهم فجأة. تنادوا، أولموا، وألقى فيهم الشيخ مازن موعظة مؤثرة، نعى فيها المرحوم، حتى بكى، وأبكى معه طباخ الأعراس، وبللت لحيته البيضاء الدموع. تقمصت أم سيد دور الخادمة، والصديقة، والطباخة باقتدار، صائنة لسانها عن المعارك الكلامية والألسنة العطنة.

كان علي علوان يحتجز صرخة في صدره، أحسّ بأنه إذا لم يطلقها، فستمزقه إرباً. خرج مسرعاً من بيت البكاء، دون أن يعلن وجهته. توجه إلى بيتهم، استراح على جذع نخلة أبيه، جوار البئر وحائطها المتصدع، تخنقه العبرات. ظل منصتاً إلى حفيف محزن في رأس النخلة، حتى انفجر بركان حزنه، قاذفاً بحممه، وارتفع منه نواح، مخر عباب السماء ناعياً اللحظة.

★

ظل علي علوان لأشهر مواظباً على الجلوس بين الأموات، مفضلاً إياه على التعايش مع الأحياء، مُيمماً وجهه، وقبله خطواته، إلى المقبرة كل يوم.

يسير وسط حقول النخل، جانب الكثبان المطوقة برواسي الجبال، يتهجأ الشواهد الرخامية التي تحمل أسماء الراقدين تحتها، ويقف أمام رمس حامد، يمسح رخامة قبره، ويجلس حذوه، يكسو وجهه بيديه، ويشتد نحيبه. يضع فوق قبره سعف نخيل، ثم يسير نحو مقبرة الأطفال، ينظف الحشائش، وما تبقى من أحراش النخيل، يصب الماء على شجرهم، وشواهد قبورهم، يتلو الفاتحة في شفقه، ويعدهم بالعودة للزيارة.

سار ذات ليلة، مهتدياً بضوء القمر، هائماً بين القبور. لاحظ اللحاد حاملاً جاروفاً معدنياً ضخماً، وقد انتهى من حفر قبر جديد. تسلل علي، حافي القدمين، انكبّ على وجهه أكثر من مرة، حتى وصل القبر الجديد، واختبأ فيه. ظل ينبش الأرض بأظافره، جامعاً الثرى في قبضته، ثم استحضر روح حامد، وخرج يحتمي خلف القبور

والأضرحة، وبين نباتات التين الشوكي، استعداداً لصد هجوم فيالق العدو. ظل في هواجسه، ومعركته، حتى صباح اليوم التالي.

عاد إلى بيته، وركب عربته، هائماً في شوارع المدينة، وإذا به يصل أمام المعسكر. نزل وأمسك بالسلك الحديدي الشبكي، شابكاً أصابعه عبر فجواته. كان الصمت مطبقاً على الفيافي الواسعة.

فجأة، شعر علي بافتقاده ألفة البدايات، وجرفه الحنين إلى زملاء رافقوه زمن الحرب، فمات منهم من مات، وأصيب من بينهم كثر. لا مجال لمقارنتهم مع نباتات الزينة، أولئك الموظفين الذين ترعرعوا في برودة الغرف المكيّفة وترفها.

وعلى الرغم من أنه واجه الحرب وتقاعد منها، وعلى الرغم مما تخلفه من غصّة لافتراسها كل جميل وخيّر في هذه الدنيا، إلا أن علي علوان تمنى اللحظة العودة إلى حيث ينتمي فعلاً... إلى المعسكر!

- تمت -

سامي الخليفي

ما بعد العاصفة

سامي الخليفي كاتب وروائي إماراتي، يكتب المقالة والقصة القصيرة له كتابات باللهجة العامية. نشر العديد من المقالات الساخرة في جريدة العالم الأسبوعية، وجريدة الرؤية، وجريدة الإمارات اليومية.

عاد الحارس ودفع علي علوان بغلظة فوق سلم صغير ذي ثلاث عوارض، يستعان به على الصعود. وفي ثوان، أصبح علي علوان نجماً من نجوم القفص. كان متماسكاً، فلم يكترث كثيراً، أو ربما لم يرد أن يزيد من حسرته. احتل الحارس مقعده بجانب السائق الذي ارتقى عرشه مغتبطاً بهذه اللحظة التاريخية، ومضى الموكب يتهادى في زحف بطيء، بين طرقات المعسكر. كان علي علوان في جوف عربة تهزه هزاً عنيفاً، أخذ ينقل بصره ما بين ساحة الميدان المفروشة بالأسفلت، مكاتب الإدارة ومكتب القائد، نادي وسكن الضباط، والكانتين والمسجد. بعد أن عبروا من أمام ثكنات الأفراد وناديهم، ومروا بجانب مخزن الأسلحة، ساروا بمحاذاة سور حصين يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار يعلوه شبك، وفي زواياه كشافات ضخمة وحراس مرابطون، جنود بؤساء مسالمون، ينظرون بعيون ملأى بالفضول إلى الموكب المهيب، فيبتسم بعضهم شامتاً، فيما ينظر آخرون بعين العطف. سرحت عينا علي علوان باتجاه قفص حديدي وضع أمام البوابة الرئيسة، هو بمثابة سجن تأديبي للجنود، لعدة ساعات أو أيام.

ISBN 978-9948-18-893-3
9 789948 188933

ISBN 978-614-432-509-4
9 786144 325094

Qindeel | قنديل
للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, Publishing, and Distribution
info@qindeel.ae
www.qindeel.ae